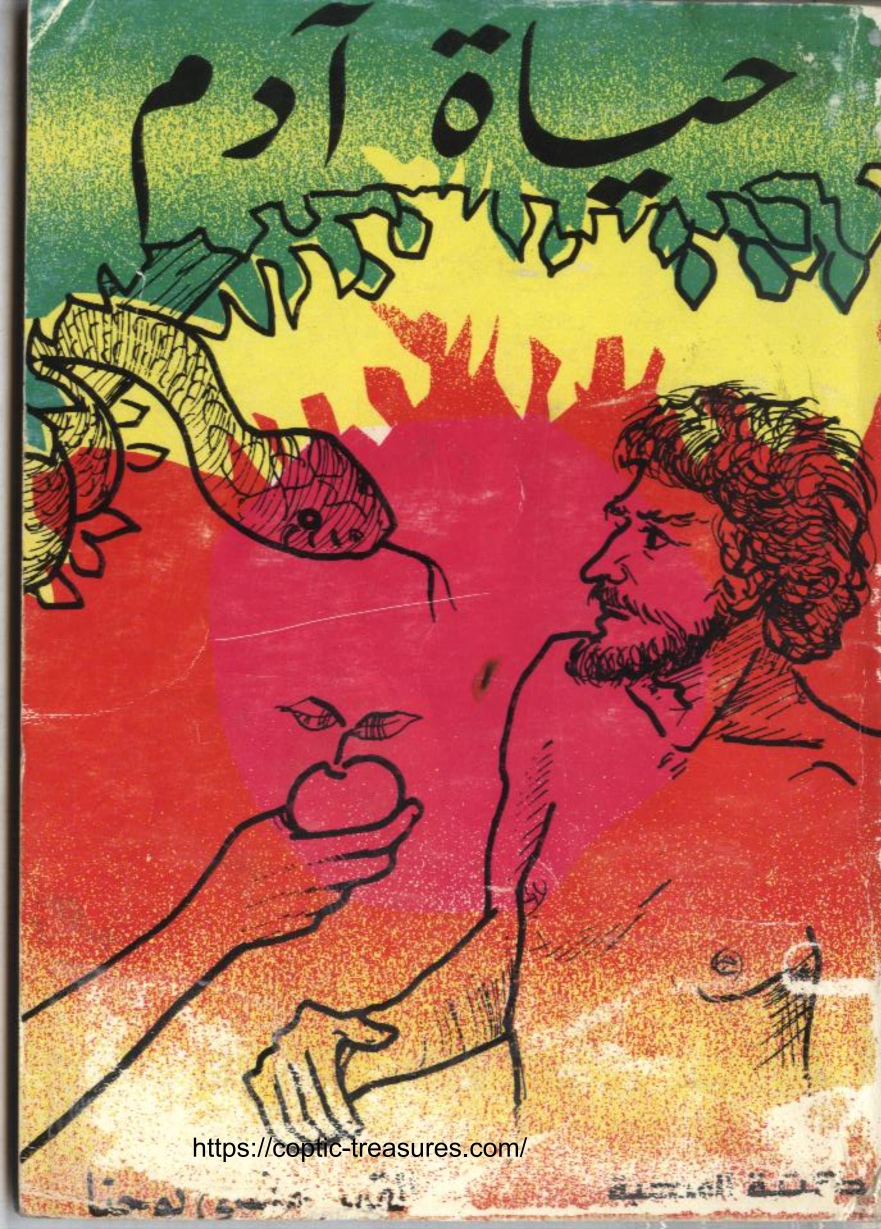

حياة آدم



المتنيح القس منسى يوحنا

تمهيد

آدم ومعناه أحمر وقد قال يوسيفوس إنه سمى بذلك لأنه صنع من التراب الأحمر ، وقال غيره لأنه جلده كان أحمر أى حسناً .

١ - جنة عدن : اختلف فى موقعها والأقوال فيها متضاربة والظاهر أن الفردوس كان شرقى الأرض المقدسة غرب آسيا . ولعله كان عند مخرج الفرات ودجلة فى جبال أرمينيا أو بين شعب هذين النهرين . ومعنى جنة (فردوس) كما ذكرنا أو حديقة أو بستان مسور لفصله عن سائر بلاد عدن . غرس فيه أنواع الأشجار والنبـاتات المناسبة للانسان ، الصالحة لأن تكون له طعاماً لذيذاً .

٢ - مدة مقام آدم فى الجنة . رأى أحد الربانيين أن آدم وحواء بقيا فى حال البر والقداسة ست ساعات فقط . وذهب آخر إلى أنهما بقيا كذلك أربعا وعشرين ساعة . ولكن من يذكر أن الله خلق العالم بالترتيب والتوالى ، وأنه لم يخلقه دفعة واحدة . وأن آدم كان يزرع الفردوس . وأن الزرع يقتضى وقتاً طويلا للنمو والنضج

إلى غير ذلك ، يرى أن آدم أقام بالفردوس أكثر من ذلك ، فإن ذلك الوقت لم يكن كافياً لتسمية آدم الحيوانات وغيرها من المخلوقات . ومع كون هذه المدة لا تعرف بالتحقيق إلا أنه لا يوجد شك فى أنها محسوبة ضمن السنين التى عاشها آدم فى الأرض وقررها عنه الكتاب المقدس . ويتضح ذلك من قول التوراة « هذا كتاب مواليد آدم . يوم خلق الله الانسان على شبه الله عمله .. وعاش آدم مئة وثلاثين سنة وولدا ولداً » (تك ٥ : ١ - ٣) .

٣ - لغة آدم فى الجنة : اختلفوا فى تعيين اللغة التى كانت للاباء قبل بلبلة الألسن ، فذهب بعض الكتاب المسيحيين الأول ومنهم أوريجانوس وأوغسطينوس وغيرهما وكثير من العلماء أن اللغة العبرانية هى اللغة الأولى التى تكلم بها آدم فى الفردوس وذهب كثيرون غيرهم أيضاً إلى أنها لغة أخرى سامية كالسريانية أو الكلدانية أو العربية . ولكن الأرجح أن الرب جعل جميع البشر يسهون عن معرفة لغتهم الأولى حتى لا يمكنهم أن يتفاهموا بها ليبطل عملهم ويحبط مسعاهم .

١ - الانسان موضوع عناية الله

ما أعظم الشكر الذى يستحقه الخالق العظيم من الجنس البشرى لأنه تعالى خصه بعناية فائقة لم يمنحها غيره ، فلأجله ولأجل سعادته خلق سائر المخلوقات حتى كان ذلك موضوع تعجب المرتل فقال « فمن هو الانسان حتى تذكره وابن آدم حتى تفتقده . وبمجد وبهاء تكلله . تسلطه على أعمال يديك . جعلت كل شىء تحت قدميه » (مز ٨ : ٤ - ٦) وقال أيضاً « يارب أى شىء هو الإنسان حتى تعرفه أو ابن الإنسان حتى تفتكر به » (مز ١٤٤ : ٣) .

نعم يحق للمرتل أن يندهل حينما تأمل فى عظم القدرة الظاهرة فى خلقه السموات والقمر والنجوم وباقى ما صنع الله لأجل هذا الإنسان الحقير ، الخليقة الأرضية الفانية . أى شىء هو الإنسان حتى تذكره يارب وتنشىء لأجله كل هذه الموجودات العظيمة ، وتشرفه بافتقادك المقدس وبعنايتك الخصوصية الأبوية .

وهكذا قال أيوب البار « ما هو الإنسان حتى تعتبره وحتى تضع عليه قلبك وتتعهده كل صباح وكل لحظة تمتحنه » (أى ٧ : ١٧) فالله ميز الإنسان الأول بنوع خاص وذريته بنوع عام بكافة أنواع التمييز ، فميز آدم بعنايته الفائقة . فلم يخلق له فماً إلا بعد أن أعد له طعامه الحسن . ولم يصنع له عيناً قبل أن يبدع لها كل ما يسرها التطلع له . ولم يجعل له أذناً قبل أن يخلق لها الطيور المغردة بأصواتها الشجية .

قال أحد الأفاضل « حيث أنه تعالى كان مزمعاً أن يخلق الإنسان ويجعله منظوراً وغير منظور ، قائما على صورته ومثاله ويقيمه ملكاً وسيداً على الأرض وما فيها فاثبت له دار ملك رفيع ليأوى إليه ويجد كل ما يؤول إلى رفاهيته ورغد عيشه ، هذا الفردوس الإلهى غرسه الله وأثبته بيده فى جنة عدن فكان خزانة لكل فرح وابتهاج . حتى أن اللفظة « عدن » معناها « النعيم » .

وقال أحد الآباء « لم يخلق آدم قبل أن يعد له البيت . فى ستة أيام جهز له كل شيء . حملت الأشجار أثمارها اللذيذة . وجرت الينابيع بالمياه العذبة . وأعد العرس للعريس العتيد . وكانت الخليقة تحمل المهر والهدية لتقدمها للعريس المحبوب من صانعها . جبل آدم ففى الحال كللته الأنوار بأشعتها . وانحنت أمامه البهائم

والحيوانات بأجناسها . وبسطت له الأشجار فروعها ليتناول منها طعاماً شهياً وانسابت الينابيع لتسقيه ماء زلالا » . ولقد صدق المرتل فى قوله « بمجد وبهاء تكلله . تسلطه على أعمال يديك » وما أعظم جود الله وكرمه الذى وهب للانسان كل هذه النعم عطية مجانية فكم يستحق هذا الإله المحسن من الشكر الجزيل والثناء الذى لا ينقطع من الإنسان الذى أحسن إليه .

أن الإنسان لم يستطع بخطيته أن يمحو محبة إلهه له فدامت له هذه العناية . فيالها من محبة تعتنى بالخائن . فلبث الرب يشفق على الإنسان ويخصه بمراحمه حتى بعد عصيانه . ونفس هذه العناية تظهر نحو كل إنسان منا . فجميع البشر يعترفون بأن عناية الله بهم تدعو للتعجب فانه لا يدع فماً طالباً طعاماً ، ولا يترك جسداً بلا لباس . وما أجمل قول النبى « إنه من إحسانات الرب إننا لم نفن . لأن مراحمه لا تزول . هى جديدة فى كل صباح كثيرة أمانتك » (مرا ٣ : ٢٢ و ٢٣).

إن الله يبدى اعتناءه بنا على نوعين : طبيعى وخارج عن حدود الطبيعة فالأول كإرساله لنا من السماء أمطارا وأزمنة مثمرة ويملأ قلوبنا طعاما وسرورا (١ ع ١٤ : ١٧) وإرشادنا إلى السبيل الحق والصلاح بصوت الضمير الذى يبدو أمره عند الوثنيين أيضا الذين

يظهرون عمل الناموس مكتوبا فى قلوبهم (رو ٢ : ٥) ، ومعاقبة الخطاة بطريقة طبيعية ابتغاء أن يؤدبهم ويصلح أحوالهم (١ كو ١١ : ٣٢) وأن يجعلهم عبرة يتعظ بهم غيرهم (٢ بط ٢ : ٦) وصدنا عن مجاراة أهوائنا صارفا عنا الخطأ كما رأينا من مثال داود الملك (٢ صم ٩ : ٢٢) وقلب الأفعال الشريرة فتأتى منها نتائج صالحة لخير البشر كما تم مع يوسف (تك ٥٠ : ٢٠) .

أما ما تراه من حالة يظهر فيها الخاطىء سعيدا والبار غير ناجح فذلك لا ينبغى أن نحكم عليه بمقتضى الظاهر إذ لسنا نعرف خفايا القلوب مركز السعادة كما يعرفها الله (١ أى ٢٨ : ٩ ومز ٧ : ٩) ربما كان بارا من نعتبره شريرا ، وكان شريرا من نعتبره بارا . هذا على أن الخاطىء إذا كان له من نعيم الحياة القسط الأوفر فلا يغيب عن بالنا ما يقاسيه داخلياً من تقريع الضمير لما يأتيه من الآثام وما يهدده من أمراض عضال وغير ذلك من الدواهي ناهيك عن عذاب الخوف من الموت ، وما يصيب الأبرار من آلام يقصد بها الله خيره وفائدته لكى يصفى من الزغل كالذهب (١ بط ١ : ٧ ، ٢ كو ٤ : ١٦ و ١٧) ونرى غالبا أن الأبرار لا يشقون وإذا تعبوا لا يطول أمد تعبهم بل يسرع الرب بنجاتهم (ام ٣ : ٢٣) . أما الأشرار فانهم لا ينجحون دائما بل تخفق مساعيهم وتنتقم منهم خطاياهم (ام ١١ : ١٤ و ٣ : ٣٤) وفوق ذلك ليس العالم موضع الجزاء بل موضع السباق ، فالفضيلة والرذيلة كلاهما يأخذ جزاءه فى العالم الآخر . أما ما يظهر الله

فيه عنايته بوسائل خارجة عن حدود الطبيعة فهو صنع المعجزات كما فى العهدين القديم والجديد . ولكن تمييز الله يظهر واضحا بالأكثر فى افتقاد الرب للانسان حين سقط بتجسد ابنه الحبيب . ياللعجب : الاله المرتفع فوق أعلى السموات يُرى متنازلا إلى افتقاد الإنسان الحقير صنع يديه . ! حقاً إن افتقاد الإله الإنسان بهذا السر العجيب يحير العقول ويذهل الألباب « مبارك الرب لأنه افتقد وصنع فداء لشعبه » (لو ١ : ٦٨) .

ليس من دليل قوى على عظيم قيمة الإنسان فى عينى الله كهذا الدليل . وإذا رأينا الله يصنع كل هذا الوجود لأجل الإنسان فلا نندهش لأن « الذى لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين كيف لا يهبنا أيضا معه كل شىء » (رو ٨ : ٣٢) .

لقد كثر فى أيامنا هذه المعطلون الذين أرادوا أن يحقروا من شأن الانسان ويساووه بالحيوان فى حياته وموته . ولكن ليعلم هؤلاء أن الشرف العظيم الذى أولاه الخالق للإنسان كما نرى ونشاهد لا يمكن لفلسفتهم الفارغة أن تحجب ظهوره . وليس من شىء يمكنه أن يحط من شأن الإنسان إلا الإنسان نفسه وذلك بابتعاده عن باريه وخالقه الذى منحه هذا الامتياز العظيم . فالشر يجعل الله يأخذ من الإنسان ما منحه اياه من العظمة ويصير الخاطىء لا كالحيوان فقط بل أقل منه شأناً وقيمة . لأنه حينذاك يكون الحيوان متمما الغاية التى لأجلها خلق ألا وهى خدمة الانسان ، ويكون الإنسان منحرفا عن غايته الأولى وهى تمجيد الله تعالى .

٢ – استقامة خلقة الإنسان

لم يخلق آدم فى ضعف الطفولة بل خلق بالغ القوى الجسدية والعقلية . لم يكن خاطئا مريضا عتيدا أن يموت وانما كان فى حال البر والقداسة . ومن قول الله تعالى « نعمل الأنسان على صورتنا كشبهنا » (تك ١ : ٢٦) نفهم أنه قصد أن يخلقه على صورته تعالى أى ذا عقل وشعور وإرادة وإختيار وقوى أدبية وقدرة على ملازمة القداسة . إن الله قدوس وكامل ولا يعمل عملا ناقصا . فلا ريب أنهُ خلق الإنسان مستقيما ، ومما يدل على ذلك أنه قيل بعد خلقه « ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً » (تك ١ : ٣١) فلو كان آدم خلق بعيب واحد لما رآه الله حسناً لأنه سبحانه لا يستحسن النقص .

خلق الإنسان بحكمة الله وصلاحه ، وحكمة الله لا تصنع شيئاً مشوها ، وصلاحه لا يتطلب إلا الكمال . فلذلك يقول الحكيم « إن الله صنع الإنسان مستقيماً » (جا ٧ : ٢٩) أو « صنع آدم الإنسان الأول » . حسب النسخة الكلدانية فخلق آدم مستقيما أى ليس فيه شيء من الشذوذ أو العيب فيما يختص بادبياته وقواه

العقلية . عندما خرج الإنسان من يد الله كان صورة مصغرة من صانعة المعروف عنه بأنه « صالح ومستقيم » (مز ٢٥ : ٨) .

قال القديس يوحنا ذهبى الفم : كانت شهوة آدم فى الجنة خاضعة لحكم عقله كما يقول الكتاب « وكانا كلاهما عريانين آدم وامرأته وهما يخجلان » (تك ٢ : ٢٥) فكان آدم رغما عن ارتباطه بقيود الجسم سائرا على الأرض سيرة الملائكة غير مستعبد للمادة . كان ملكاً ذا حكمة عجيبة وقد شرفة الله وتوجه باكاليل مجد ذى بهاء لا يوصف » .

وقال أحد الأفاضل « مال الخالق العظيم إلى التراب وألبسه نفساً بصورته ومثاله . فانظر أيها الإنسان قيمة نفسك فكم يجب أن تكون عزيزة عليك . إن الله خلقها على صورته فى المعرفة والبر والقداسة والسلطة . فاحذر أن تفسد ما جمله الله . احفظ نفسك نقية طاهرة كما اودعت فيك .

والدليل على حكمة آدم هو تسميته كل الحيوانات باسماء خاصة (تك ٢ : ٢٠) غير أنه لا ينبغى أن يتبادر للذهن أن حكمة آدم التى خلق بها كانت غير محدودة فذلك ما يختص بالله وحده . نعم كان عقله طاهراً نيراً مجرداً من الأوهام الكاذبة والأضاليل . يستطيع أن يدرك حقيقة كل أمر بلا تعب ، ألا أنه كان محدوداً إذ

لم يستطع أن يدرك حقيقة كل الأشياء معاً ، وسقوطه برهان على ذلك (تك ٣ : ١ – ٥) . فعقل الإنسان كان يتكمل يوما فيوما حتى يتكمل إلى عقل الملائكة غير أنه لا شك فى كون آدم كان كاملا فى أدبياته منزها عن كل غش ودعارة . وغنى عن البيان أن استقامة ابوينا الاولين لم تكن من أول نشأتها كاملة تامة عندهما دون أن تحتاج إلى ترقيتها واستكمالها .

وهذا أيضا نقوله فيما يخص جسده ، فما خلق كاملا من كل عيب محفوظاً بقوة الله من كل عارض ، غير أنه كان قابلا لكل خطر بانحراف الانسان عن وصية الله ، والمراد من قول الكتاب أنه تعالى خلق الإنسان على صورته هو أن نفس الإنسان خولت قوى غريزية ذاتية لا تنفك عنها كالنطق والاختيار والخلود والسيادة والتروى وخولت خصوصاً أدبية ينتهى اليها الإنسان بمراس الدربة والتدريج ، كاستقامة العقل وطهارة القلب وقداسة الارادة ، التى إذ مارسها الإنسان ورعاها يغدو متشبهاً بالهه .

فإذاً قوله خلق الإنسان على صورة الله ومثاله لا يخص جسده بل نفسه . ومن رأى بعض الآباء أن صورة الله فينا نأخذها حين وجودنا على الأرض ولا تنفك عنا . أما مثاله فيجب علينا نحن أن نحصل عليه إذ قد أوتينا قوة للحصول عليه فقط وهذا ما أيده

الكتاب المقدس فقد جاء فيه أن صورة الله لبثت فى الإنسان حتى بعد سقوطه من حالته الأولى السعيدة كما قال تعالى لنوح بعد الطوفان « سافك دم الإنسان بالإنسان يسفك دمه . لأنى بصورة الله صنعت الإنسان » (تك ٩ : ٦ ويع ٣ : ٩) كذلك أوصى الرسول المسيحيين قائلا « وتلبسوا الإنسان الجديد المخلوق بحسب الله فى البر وقداسة الحق » (اف ٤ : ٢٤) فواضح من القول الأول أن صورة الله وضعت فى طبعنا ومن الثانى أشير إلى مثال الله أو التشبه به وهو متعلق بارادتنا .

٣ – غاية خلقة الإنسان

خلق الإنسان لغاية صالحة . نعم لم يخلق الله الإنسان عبثاً . قال تعالى « ولمجدى خلقته وجبلته وصنعته » (اش ٤٣ : ٧) فاذاً خلق الله الإنسان لكى يتمجد به تعالى . وكل عاقل يجب عليه أن يدرك الغاية التى وجد لأجلها . نعم إن باقى مخلوقات الله لا تعقل ولكنه أودع فيها غريزة تتمم بها غايتها من خلقها وهى خدمة الإنسان . أما الإنسان العاقل المخلوق على صورة الله وشبهه فيلزمه أن يعرف لأية غاية خلق ؟ ليمجد خالقه . فهل عرفت أيها

الإنسان الغرض من وجودك . فلم يمنح الله الإنسان امتيازا عن كافة ما أبدع بلا جدوى ، ولكنه ميزه بمزايا عجيبة ليدوم متصلا به تعالى ممجدا إياه بلا انقطاع .

لا يوجد عاقل يعمل عملا لا غاية له فيه . وكل حيوان فى وسعه الاختيار مساقا بشيء من اختياره . وكل انسان لا يمكن أن يحيا بلا غاية يتجه اليها فى عمله ومقاصده . وبدون هذه القوة لا يمكن لنفسه الناطقة أن تختار لها غرضا أكثر مما تستطيع الكتل العديمة الحياة فى العالم المادى فهذه الأجسام الجامدة تتحرك حسبما تدفع وأن اعترضتها قوة معاكسة لا تقدر أن تختار أحدى القوتين بل تترك الواحدة وتتبع الأخرى . غير أن الإنسان له قوة الفكر التى يستطيع أن يميز بها بين الصالح والطالح ، وله استطاعة أن يختار الأول ويرفض الثانى وله قوة المقاومة التى لا تملكها هذه الأشياء . يستطيع أن يصطفى لنفسه منهجا ويعارض كل ما يصده عنه . ويمكنه إذا رضخ للقوة التى تعارضه أن يقويها ، وبمقاومته يقدر أن يضعفها .

أن كثيرين من البشر يعيشون بلا غاية . لا بل يعيشون لغاية ردية . فهم إذاً يحولون قصد الله فى ابداعهم إنه خلقهم له لا للعالم . للخير لا للشر . للقداسة لا للنجاسة . للسماء لا للأرض.

نعم فى العالم غايات كثيرة . ولكن الله منح الإنسان عقلا يفهم له الغاية الصالحة من الغاية الشريرة . غير أنه كثير عددهم أولئك الـذين لا يعيشون إلا للخطية ، يتمنون أن تطول أيامهم لا ليقضوها فى تمجيد خالقهم المعتنى بهم ، بل ليمتد أجل تمتعهم بالشر والخطية .

كم من واحد يفكر فى نفسه قائلا . لما خلقت ؟ كثيرون أولئك الذين يقضون يومهم مفكرين فيما يربحون ، وينامون وهم يحلمون بذلك ، ويستيقظون والأفكار فى مجدهم وشهواتهم تترى وتتسابق إلى اذهانهم دون أن يفكروا فى شيء آخر أفضل لهم هو النظر إلى من سيصيرون إليه . هم يجعلون غايتهم بسوء اختيارهم قصيرة فالذين يختارون العالم إنما يختارون الأقل والذين يرفضون السماء إنما يرفضون السعادة عديمة النهاية . قال الرب « ويل للذين يصلون بيتا ببيت ويقرنون حقلا بحقل حتى لم يبق موضع » اش ٥ : ٨ .

وهكذا فمهما تعددت الغايات الباطلة فكلها عديمة الفائدة فمن يذهب إلى حقله ومن يذهب إلى تجارته ، ومن يهتم بأصحابه ، وغير ذلك ، طالبين اللذة فى هذه الأمور وحدها دون طلب اللذة من عشرة الله مع أنه لا يوجد من وجد اللذة فى هذه الأشياء مطلقاً .

تأمل أيها المنصرف عن غايتك الحقيقية إلى السيد المسيح وكيف كان له في وجوده على الأرض غاية واحدة وهي خلاصك . إنه بذلك يرسم أمامك سبيلا للسير فيه ، فتسلك وراء خطواته وتتبعه في سيره . إن المسيح لم يحيا لذاته ولكنه عاش لك فأنت أيضا لا ينبغي أن تحيا لذاتك بل له وللآخرين يقولون إن نظام المسيحية يقضى على الطبيعة لأنها ترى فى الطبيعة وفى روحها عيوبا كبيرة ، وكل ما يصلح الاجتماع والفن والعلم يجب غض الطرف عنه لأنه يقود إلى الخطية التي تحول الإنسان عن الفرض الحقيقى الذى هو الله وحده . هذا هو اعتراضهم على المسيحية ولكن الذى أملاه عليهم اعتبارهم أن الأنسان مؤلف من جسد فقط لا روح له فهو كالحيوانات لا يهمها إلا أن تأكل وتشرب ثم تموت ، فما على الإنسان إلا يهتم بجسده ، ينعمه ويرفهه ويسعى فى الحياة الدنيا لرفع شأنه وليس له أن يهتم بغير ذلك ، ولكن المسيحية أيها المعترضون تعلم بأن للإنسان غير جسده روحا خالدة لها حياة أخرى خلاف هذه الحياة ينبغي للإنسان أن يهتم بها ويسعى فى اصلاح شأنها ، والمسيحية لم تقل باهمال الجسد وباغفال تحصيل قوته ، ولكنها تعلم بذلك وفى الوقت نفسه تريد أن يعرف الإنسان أن له روحاً خلاف جسده فلا ينبغي أن يصرف

همه لخدمة جسده الفانى وناسيا روحه الخالدة . وإذا كنا نهتم بجسدنا الفانى ونحرص على لذاته فبالأولى نجتهد لنضمن لأرواحنا التى لا تفنى سعادتها الأبدية .

الدين المسيحى لا يرى فى الطبيعة عيوبا إلا ما يستخدمه الإنسان لضرره أخلاقيا وروحيا . الدين المسيحى لا يرى فيما يرقى الاجتماع أقل عيب لأن أول مبادئه ترقية الاجتماع . وأى ترقية للأجتماع أفضل من أن يعيش الإنسان فى دائرة الفضيلة . قال أحد الأفاضل « ربما يقول البعض إن مبدأ الشرف والانسانية أوجد فى العمران روحاً جديدة . نقول ولكن المسيح هو الذى ابدع فى الوجود مبدأ الانسانية هذا الذى إذا جردناه منه لا يكون إلا فكراً وهمياً . وأى نفع ترى من انسانية مجردة عن القوة الأدبية والباعث الأدبى ولا غاية أدبية له للحياة الانسانية لا للفرد ولا للجمهور . وإذا أنكر الناس هذا المبدأ الأدبى المسيحى فأين السبيل لأساس مدنيتهم . هل فى المبادىء المادية القائلة بسيادة القــوة وبقاء الأنسب فلا يسود فى معترك الحياة إلا شديد البطش ، كثير الاقتدار كما يقول الماديون . أو هى فى غيرها من مبادىء بعض الفلاسفة الوهميين التى تحقر الإنسان وتحط بشأنه ولكن أين هذه المبادىء من الأصول المسيحية القائلة بأن ابن الله

هو أب للإنسان وأنه تعالى يريد الخير لكل الناس فيجب على كل فرد أن يفوز بالخير الذى يريده له الله . وما يمكن للفرد عمله تستطيع الهيئة اتمامه » .

فالدين المسيحى هو العامل على ايجاد هيئة صالحة تعمل لخير الإنسانية فعلا تستنبط ما يؤول للصالح العام لا للخراب والدمار كما تفعل مدنية الجيل الحاضر . أن الدين المسيحى يعتبر الكسل شر الخطايا . ولذا فإنه ينشط اتباعه ليشتغلوا ولكنلا يترك لهم الحبل على الغارب لأنه يعرف ضعف الإنسان ومقدار ميله للسيطرة والسؤدد . فيعلمه أن المال بركة إذا استخدم فى وجوهه الصالحة ولكنه لعنة وخطرا إذا ما استخدم فى سبيل الوصول لمآرب فاسدة ، فلم يقل الكتاب « المال أصل لكل الشرور » ولكنه قال إن « محبة المال أصل لكل الشرور » .

فالمسيحية لا تطلب القضاء على ما يرقى الاجتماع بل بالعكس توجب القضاء على ما يفسد الاجتماع . ولو كان الذين يدعون أنهم مسيحيون كذبا يسلكون حسب أوامرها ونواهيها لما كنت ترى هذا الشر المتعالى . وما كنت تسمع له صوتاً ولا كنت ترى تلك الحالة التعيسة التى تئن منها الانسانية والتى منشؤها الطمع وحب التوسع سواء كان فى الجماعات أو الأفراد .

نعم ما أسمى الحياة التى يعمل فيها الإنسان ويوجه فكره إلى إلهه السماوى فيخافه ويخشاه ولا يسمح لنفسه بدرهم يسلبه غشا أو ظلما . وما أشقى حياة لا يعرف فيها المرء الله بل يعرف فيها الاكتناز والشهرة من أى طريق ، فلا يبالى أى ظلم أو جار مادام يصل إلى أمنيته . أن المسيحية تشجب هذا النوع من السعى فى الحياة وتشجبه بكل قوتها لأنه لا يرقى الاجتماع بل يفسد نظامه . وأن كنت ترى رقيا بحسب الظاهر فهو فى الداخل سقوط وانحطاط . وهل يسر المعترضون أن لا نهتم بالخطيئة ولا نحسب لوجودها حساباً حتى لا نبالى أن نسلك فيها ما دامت توصلنا إلى أغراضنا . يالها من مدينة تعمل على تقويض نظام الحياة السعيدة !! ليقم جميع الذين انحرفوا عن جادة المسيحية واتبعوا قوانين تلك الانظمة التى حسبوها داعية إلى الرقى والتقدم وليقولوا لنا هل شعروا يوما بشبه سعادة أو ظفروا بلحظة سلام ؟ كلا فالمسيحية لا تمنع عن شىء ترى فيه خيراً للناس ، ولكنها قامت سداً منيعا بينهم وبين ما يشقيهم .

ألم يصل إلى علمكم نبأ الوف من أصحاب الملايين ومن الفنانين والمخترعين ورجال العلم والسياسة الذين لم يروا طريقا أسهل لخلاصهم من شقائهم إلا الانتحار فأسرعوا اليه وأقبلوا على الموت مستسهلين إياه عما هم فيه من غم .

من أى منقذ دخل اليهم الهم وهم كانوا محصنين بالذهب والمقدرة والشهرة . ذلك لأنهم كانوا يعملون دون أن تسندهم المبادىء المسيحية التى تساعد على التقدم فى العلم الصحيح وتؤازر على الرقى فى الاختراع الذى يخفف ويلات الإنسانية .

أما هم فلم يجدوا لأنفسهم غاية إلا المجد من أى طريق فلم يظفروا به حتى كان محفوفاً بالشقاء فتركوه وولوا الأدبار هاربين من الحياة وكان ذلك منهم شهادة لا تنقضى على أن المسيحية بمبادئها التى يعتبرونها قضاء على الطبيعة تعمل على إسعاد النفس الانسانية ، وقد حقق الاختبار أنه لا سلام لنفس لا ترتكز على تلك المبادىء وتتخذ لها منها قوة تستطيع بها أن تنتصر على أكاذيب الحياة وغرورها .

ما هو المبدأ الصحيح ؟ ليس هو الذى ينيل المجد والشهرة بأى واسطة كانت ، صالحة أم غير صالحة ، بل هو الذى يمنح السلام والسكينة للقلب . وماذا ينفع المجد وماذا تجدى الشهرة أن كان القلب حزينا أسفاً ؟ وهل يظن اولئك الذين يشهرون بالمسيحيه أن مبادئها تحول بين التقدم والرقى ؟ وهل جهلوا أن ألوفا من المسيحيين الأتقياء كانوا فى مقدمة المخترعين والفلاسفة الذين علموا بحق لخير الأنسانية . فلم تمنع المسيحية تقدمهم بل

ساعدتهم عليه ، وامتيازهم عمن تقدموا بدونها أن هؤلاء فازوا بمجد الحياة مع شقاء داخلى ولكن اولئك فضلوا راحة الضمير فحصلوا عليه وساعدهم ذلك على الوصول بهدوء إلى ما استطاعوا أن يخدموا به المجتمع الخدمة الحقيقية .

وثقوا يامن تبغضون المسيحية أن هذا الدين الذى تبغضونه هو الذى يحفظ سلامة المجتمع الذى تغارون عليه ، وإن اتباعه الأفاضل الذين يعملون بلا صياح ولا طنطنة هم الذين يخدمونه أفضل منكم . لو اتفق أن خرجوا جميعهم من حلبة هذا المجتمع بفضائلهم المسيحية لكنتم ترونه وبالا وشرا مستطيرا ، ولكنتم ترون فلسفتكم أعجز من أن ترفعه من الدرك الذى يسقط فيه .

٤ — خلود النفس

لم يخلق الله آدم عبثاً كما قلنا بل لغاية صالحة . ولم تكن غاية الله أن يخلق آدم لمدة محدودة وبعدها يرجع إلى العدم جسداً ونفساً . بل تقتضى تلك الغاية الالهية التى لا ريب فى صلاحها لإنها غاية الله أن يحيا آدم إلى الأبد لمجد الله . وإن كان الجسد خلق ليرجع إلى العدم فالنفس من الله اعطيت للخلود والحياة الأبدية ، كما قال الحكيم « ترجع الروح إلى الله الذى أعطاها »

إلا أن كثيراً من المخالفين ينكرون خلود النفس ويزعمون أنها تفنى مع الجسد ، وهذا الزعم منقوض بأدلة قوية :

أولا : بساطـــة النفس البشـــرية . النفس البسيطة كمـــاً « مقداراً » وذاتاً « حقيقة » فهى بسيطة أو غير مركبة أو مؤلفة من أجزاء بالنظر إلى الكم بالأدلة الآتية :

١ - النفس تدرك ما يحصل للجسم من التحول والانتقال ، واكتسابه صوراً أخرى كانتقاله من شكل مخصوص إلى شكل آخر يغايره كالانتقال من الطفولية إلى الشبوبية والشيخوخة ، وهى لا تدرك ذلك إذا كانت جسماً مركباً . فهى إذاً بسيطة لأن كل جسم له صورة خاصة لا يقبل غيرها من جنسها إلا بعد مفارقته اياها مفارقة تامة .

٢ - نجد فينا احساسات متنافية تجتمع فى وقت واحد كالمحبة والبغض . لو كانت النفس مركبة لأختص كل جزء من أجزائها بواحد من هذه الاحساسات إلا أن اجتماعها فى جزء واحد وفى وقت واحد يثبت أن النفس بسيطة .

٣ - إذا ذكر الإنسان وفهم شيئاً أخبر بقوله « أنا أفهم هذا الأمر » لا جزءاً منه لأن الجسم ليس فيه هذه القوة ولا يرجع على ذاته إذ ليس للجزء أن يرجع على الكل ، فلا يصح التعبير باليد

عن الجسم كله . إذاً ففى الإنسان شىء آخر غير الجسم وهو الذى يرجـع على ذاته وهو الـذى نسميه مجـردة عن الجسمية أى بسيطة .

أما بالنظر إلى الذات فذلك يبرهن بما يأتى :

١ - إن النفس تدرك تصورات وإن كانت كثيرة المشخصات لا يمكنها أن تقر إلا فى نقطة واحدة وهذا يثبت أنها بسيطة . فالنفس فينا تفتكر ، وما يفتكر يلزم أن يكون بسيطا إذ الفكر لا يقر فى شىء مركب لأن الفكر واحد والأجزاء متعددة بمقدار عدد أجزاء الجسم المفتكر فيه .

فادراك العفاف مثلا إذا فرض أنه يقر فى جسم فإما أن هذا الإدراك منقسم بين أجزاء الجسم كلها أو موجود فى جزء واحد أو أن كله فى كل جزء . فإن كان الأول كان كل جزء من الجسم يدرك جزءاً من العفاف فليس لجزء أن يدرك العفاف كله . وإن كان الثانى كان الجزء نفساً لا الجسم كله وهذا بسيط بالطبع . وإن كان الثالث كان فى الإنسان أناس يتصورون على قدر ما فيه من الأجزاء وهذا بديهى البطلان .

٢ - تدرك النفس الحقائق وتعرف أوجه اتفاقها واختلافها وهذا لا يكون إلا إذا كانت بسيطة إذ لو كانت جسما أو جزءاً منه

تعذر عليها ذلك الفهم إذ لا يعلم الجزء الواحد بما عند الجزء الآخـر من الشعور والادراك ليتمكن من استخراج النتائج الصحيحة . مثلا إن النفس تحكم أن الخير يجب والشر لا يجب ، وتقضى بناء على ذلك أن تتصور الخير وحده والشر وحده والمحبة وحدها . فلو كانت مركبة لما أمكنها أن تحكم هكذا لأن جزءاً منها يتصور الخير وآخر يتصور الشر ، وغيره يتصور المحبة ، ولا علم للواحد بما عند الآخر .

فالذى يدرك ذلك شىء مجرد عن الجسمية وهو النفس البسيـطة كما ذكرنا . إذاً فالنفس شىء قائـم فى ذاته بسيطا فى كمه وذاته .

ثـــانيا : روحانية النفس البشرية . النفس جوهر روحانى لا يدرك بالحس ولكن تظهر آثاره فالذات الألهية لا ترى بالأبصار ولكن آثارها ناطقة وشاهدة بوجودها كما قال الكتاب الالهى « لأن أموره غير المنظورة ترى منذ خلق العالم مدركه بالمصنوعات قدرته السرمدية ولاهوته حتى أنهم بلا عذر » .

والبراهين على روحانية النفس كثيرة :

١ - قوة النفس وتمكنها من قبول صور الأشياء كلها على اختلافاتها من المعنويات والحسيات بدون أن يلحقها ضعف أو

فتور ولو كانت جسماً لوهنت بلا ريب ، كالبصر مثلا فإنه يكل عن الأبصار إذا اشتدت عليه الألوان .

٢ - ادراك النفس أشياء لا قبل للجسم بها كالبساطة والأزلية وجودة الأخلاق ورداءتها وغير ذلك .

٣ - استدراك النفس شيئاً كثيراً من خطأ الحواس فى مبادىء أفعالها . فمثلا نرى أحيانا عصا فى المعدن فنرى جزءها الداخل معوجا وملتويا عن جزئها الخارج ، ومع ذلك نحكم انها كلها مستقيمة . ونرى الشمس كطبق صغير ومع ذلك نوقن أنها أكبر من كل العالم ، فلو لم يكن فينا إلا الجسد الذى يرى الخارج فمن هو الذى يصلح فكرنا باطنا ويرينا خطأ حواس الجسد . أنه ليس إلا النفس الروحانية .

٤ - اشتياق النفس إلى ما ليس من طباع البدن كالعلم والفضيلة والحق وحرصها على معرفة الحقائق الالهية بحيث لو عارضها الجسم لأقصته عنها وسارت فى طريقها اذ هى حرة بخلاف الجسم فإنه لا يتأثر بمثل هذه المناقب الشريفة .

فلا سبيل اذاً إلى انكار بساطة النفس وروحانيتها ونضيف على ما تقدم ما يأتى :

١ - اننا نرى المبدأ المفكر فينا حاصلا على الحرية فى أعماله فله أن يأكل ويشرب ويمشى وبالعكس . ولا يمكن أن يكون كذلك إذا

مركبا . وليس من يقول أن الأجرام السماوية تستطيع الحركة والسكون من نفسها وكذلك الجسد المادى . فاذاً المبدأ الحر المفتكر فى الإنسان يمتاز عن الجسد ببساطته وروحانيته .

٢ – يتذكر العقل البشرى أشياء كثيرة مضى عليها وقت طويل ثم يستطيع أن يدرك من الحقائق مالا علاقة له مطلقا بالحواس . وليس للمادة مهما اوتيت من السرعة القوة على ذلك لأنها لا تفعل إلا فى الحاضر المحسوس ، لا الغائب غير المحسوس فاذاً النفس ممتازة ببساطتها وروحانيها .

٣ – لو لم يكن للإنسان نفس بسيطة روحانية لكانت كل افكاره واعماله حركات آلية كحركة الساعة ، والمبدأ فى الحركة الآلية هو أن تكون مطابقة لعلتها . فقوة البخار تسير بحد محدود . والحجر إذا رمى يسير كقوة من رماه وذلك بعكس افكار النفس واحكامها فقد يأمر السيد خادمه بصوت ضعيف بعمل يقتضى من الخادم تعب اليوم كله . وقد تشعر بفكرك بخطر فتسرع بالهرب أياماً عديدة فليس مناسبة بين الصوت الضعيف والشعور بالخطر ، وبين تعب يوم أو هروب ايام ، فليس إلا النفس البسيطة الروحانية التى تقوم بهذه الأعمال بلا حركة آلية .

٤ – للإنسان أن يعبر عن فكره بلفظ أو باشارة اختيارية . والمادة لا قبل لها بذلك لأنك إذا نطقت كلمة وسمعها جمهور مؤلف

من أمم مختلفى اللغات فتأثيرها فى آذانهم واحد ولكن لا يفهمها إلا من كانت هذه الكلمة من لغته أو من كان يفهم معناها . فلو كانت افكار الناس من الحركات الآلية لكانت تلك الكلمة تؤثر فى عقول الجميع تأثيراً واحداً . فلا ريب إذاً فى أن النفس مجردة عن كل مادة ، وبالتالى هى بسيطة روحانية .

ثالثا : الادلة على خلود النفس .

١ – اثبتنا أن النفس بسيطة روحانية مجردة عن المادة وذلك يبرهن خلودها لأن ما كان بسيطا أى غير مركب لا ينحل إلى الاجزاء .

٢ – ما نجده فى النفس من الميل للسعادة وابتغاء الوجود الدائم . ومما لا ريب فيه أن أشتهاء النفس الخلود ليس بلا جدوى فلابد أن تكون خالدة لا تنال سعادتها ولا خلودها فى هذا العالم فهى إذاً خالدة .

٣ – أن النفس بعذ انفصالها عن الجسد تدوم عاقلة مريدة ، وذلك :

أ – فقد علمنا من الكلام على روحانية النفس أنها تتمم أفعال العقل والارادة بعد انفصالها عن الجسد .

ب – اننا نجد بالاختيار أن النفس كلما تجردت من الحواس استكملت أفعالها العقلية فلا ريب أنها حينما تتجرد من الحواس نهائيا تكون أكمل فهماً وأعظم معرفة .

٤ – أن فناء النفس يناقض صفات الله الصالحة .

أولاً – أن خلود النفس تقتضيه الحكمة . فللعقل والارادة ميل طبيعى للكمال وبدونه تبقى الطبيعة العاقلة غريبة الخلقة (١) لأنه يتعذر عليها أن تملأ الميل الذى لها من ذات طبعها (٢) لأنه يتعذر عليها أن تتبع جزءها الأسفل الذى هو الاحساس ويتعذر عليها ايضا أن تتبع جزءها الأعلى الذى هو العقل والارادة مع أن كمالها لا يقوم بالأول بل بالثانى ، لأن الأول واسطة والثانى غاية .

ثـانيا – أن فنـاء النفس يناقض النظـــام الأدبى (١) فنحن نجد فينا ميلا دائم الاتصال للحصول على السعادة (٢) نجد شريعة لابد أنها تأمر بالفضيلة وتنهى عن الرذيلة ، ولو لم تكن حياة أخرى لكان هذان الأمران متنافيين لأن السعادة لا تتوفر لأحد هذا رغما عن تحديد الشريعة كيفية السعى فى الحياة بطريقة تجعلنا نفهم أن فى ملذات العالم كل المساوىء والشرور .

ثـالثاً – من الأجماع الإنسانى . لا يمكن أن يجمع الجنس البشرى عامة على أمر خطأ ولو لم تكن حياة أخرى لما اعتقد بذلك كل فرد من أفراد النوع الإنسانى .

رابعـاً – من نظام العدالة . كم نرى فى هذا العالم أن الرذيلة منتصرة والفضيلة منهزمة ، وأن الشرير يعيش فى سعة ورحب

والبار يعيش فى ضنك وكرب ، فلابد من حياة أخرى يجازى فيها البار على بره والشرير على شره بكل عدل وبدون محاباة .

خامساً – من نظام العناية . لأنه لو لم تكن حياة أخرى يتجلى فيها صلاح الله بالنسبة لبغضه للخطية وحبه للفضيلة لما ظهر ذلك لو كانت الحياة قاصرة على الوجود فى هذا العالم .

وبالجملة فليس لقوة ما أن تعدم النفس الوجود لأن الملاشاة من الوجود كالخلق لا يقدر عليها إلا الله وحده فليس من قوة فى الوجود مخلوقة تقدر أن تعدم النفس الحياة .

وفوق ذلك فإن كل الموجودات الحية لا يلاشى فيها الله أقل شىء من أجزاء المادة الأصلية فنرى مثلا أن الإنســان كان طفلا ثم شاباً ثم شيخاً ثم يموت وبعد ذلك لا تجد منه إلا غباراً . فهل تلاشى شىء من الأجزاء التى كان مركباً منها ؟ كلا بل عاد بانحلال جسده كل عنصر اجتمع فى تركيبه إلى أصله . وكذا ترى شجرة صغيرة قد كبرت ونمت ثم قطعت وحرقت فمادة نموها التى أخذتها من العناصر التى فى الأرض والهواء عادت بعد احتراقها إلى عناصرها الأصلية بنوع أننا لو أمكننا أن نرى الأرض عند أول وجودها ، وأن نزنها الآن فلا نراها قد زادت أو نقصت درهماً واحداً عما كانت عليه فى البداية .

فـإنت كانت الموجودات الهيولية لا يرد الله منها شيئاً إلى العدم ، فكيف يلاشى ويرد النفس إلى العدم وهى أشرف الموجودات كلها .

وإن قلنا إن الله يلاشي شيئاً مما صنع فلا يفعل ذلك إلا لداع كبير يتفق وحكمته السامية ، فلا داع أن يلاشى الله النفوس ويخرق شريعة الطبيعة العامة . لا داع لذلك لا من قبل طبع النفس لاننا أثبتنا إمكان وجودها وحياتها بعد الانفصال ، ولا من قبل نظام العالم لأنه يقتضى بالأولى حفظ النفوس . ولا من قبل نقص الغاية لأن النفس يمكنها أن تدرك غايتها الأخيرة بعد الانفصال بتنعمها بالله والقيام بمجده إذ تبقى لها قواها كما قدمنا فلا داع إذاً لملاشاة الله إيــاها كما أنها بنفسها غير قابلة للفساد فإذا هى أبدية .

رابعاً – اعتراضات على خلود النفس (١)

(١) يعترضون أن أنفسنا وتصوراتنا وأميالنا موكولة إلى الأعمار والأمزجة والأهواء والأمراض .

فنجيب لأشك فى أن السن كثيراً ما يؤثر فى تجليات النفس ولا ننكر أن الدماغ آلة لأفعال النفس ، والآلة فى الطفل غير صالحة لأبراز أفعــال نفسه كما تعد صـلاحيتها إذا طـــرأ عليها

---

(١) حكم الطبيعة ٣٦ آثار الدائرة العلمية ٢٦ كتاب الفلسفة .

فساد كما فى المجانين ، إلا أننا لا نسلم لمعترضين بـــأن التعقل ناتج من تصلب الدماغ لأنه يقتضى لانتاج التصورات التردد والاستدلال وإمعان الفكر والامتحان ، ولا مناسبة بين هذه وبين صلابة الدماغ أو لينه .

أما قولهم إن المزاج ينشىء أخلاقاً حقيقية وأميالا أكيدة وأن فضائلنا ورذائلنا موكولة إليه فهو باطل لأن الاختيار والحس الباطن يؤكدان أن لنا الحرية أن نعمل الفضيلة أو الرذيلة وليس شىء ما يكرهنا على ذلك . ونعلم أنه يمكن أن نقـــاوم أميالنا وأن فينا مبدأ روحياً غير المزاج والميل يترأس عليهما ، وله الحرية فى الانقياد لهما أو كبحهما ، وكم من كثيرين انتصروا على أميالهم وأمزجتهم كما أن كثيرين أساءوا التصرف بهما .

فإذا وإن كان المزاج مساعدا على بعض الفضائل والرذائل إلا أنه ليس مصدراً أو علة ضرورية لهما كما دل على ذلك الامتحان .

أما من حيثية الأمراض فلا يلبث من أصيبوا بها على ما كانوا عليه وهم فى صحتهم إلا تلك التى تقودهم إلى الجنون والعته .

(٢) يعترضون بأن الأنانية هى النفس عينها . والحال أن المجانين ليس لهم أنانية أى لا يترددون على الوجدانيات ولا يبرهنون عليها ... الخ . فإذا لو كانت النفس شيئاً بسيطاً روحياً ممتازاً عن الجسد لما انفكت تمارس أفعالها .

فنجيب بأن الأنانية هى النفس عينها مراعاة لتجليات قواها فى عالم الشهادة المنتهية إلى الظهور الممكن أن يتوقف لمانع ينشأ عن الأعضاء من غير أن ينجم عنه انقطاع لكيان المبدأ الروحانى أى النفس . وعليه يكون إطلاق نفس على الأنانية على سبيل المجاز المرسل . ذلك بأن الأنانية لا تظهر لنا دائما ولا تمثلها تحت صــور كيانها جميعها فتكون النفس مرارا من دون أن تعرف ذاتها ، وإذا كانت تجهل ذاتها فبالأولى تجهل افعالها : وإلا فأين تكون النفس حين يكون الإنسان جنينا أو ولداً زمان لم يكن ليتردد على ذاته ويكون وجوده الداخلى مقتصراً على بعض صور حية ملتبسة مشوشة ، أو أين تكون فى حالات الإغماء والسبات والنوم الخلى من الأحلام وفى حالة الجنون وغير ذلك ، وهذا لا يمنع أن تكون النفس روحانية ممتازة عن الجسد بل يؤذن بأن اتحادها بالجسد يقضى عليها أحيانا بأن تظهرها مشوشة لتشوش آلات الجسد المتحدة به .

٣ - يقولون إن النفس لا تزال تبعا لتقلب الجسم فهى تشب وتهزم معه . ولأن الأعضاء إذا تشوش نظامها تشوشت لا محالة الأفعال العقلية .

فنجيب أن النفس لا تتقلب تبعاً لتقلب الجسم لا دائما ولا على وتيرة واحدة لأن الجسد فى سن الشباب يكون قويا ضليعاً ولكن

قوة العقل تكون حينئذ أقل روية وحسن تقدير مما فى سن الشيخوخة حيث يكون الجسد ضعيفاً نحيلاً . ثم أن ما يجعل الجسد حاصلا على القوة يضر النفس غالباً ، وبالعكس كلما تمكن الإنسان من حشد عقله بمختلف العلوم والمعارف وكلما أكب على وهن الجسد (جا ١٢ : ١٢) وما تستلذه الحواس كثيراً ما تعافه النفس وتنفر منه . ثم إذا أجبرت الجســد على فعل شىء أو تركه لا تكره النفس على صنعه أو الابتعاد عنه . وإذا قطعت عضوا من البدن لا تقطع جزءاً من النفس فإذاً انتشار قوى النفس وعدمه يغايران نمو الجسد ونقصانه فالجسد ينمو بالنسبة إلى جوهره بقبول أجزاء حديثه لم تكون من قبل . أما النفس فتنمو بالنسبة إلى نوعية كيانها وحالته أى بالاختيار وأعمال الروية فى العلوم وانعام النظر فى الفنون والتشمير عن ساعد الجد فى تحصيل الفضائل والمثابرة عليها وغير ذلك .

ويتضح أيضاً جواز حمل كلمة هرم على النفس إن أمكن حملها بالمجاز . فإن الجسد إذا ما وصل إلى الكبر ضعفت فيه لا محالة قوة المخيلة والحساسة اللتان تصبحان أفعال العقل وترافقانها ما اتحدت النفس والجسد . ولما كان تجلى هاتين القوتين إلى عالم الشهادة موكولا إلى الأعضاء لزم عن ضعف هذه الأعضاء ضعف المخيلة والحاسة .

٤ – يدعى جمهور الكفرة أن ما يسمونه العقل الإنسانى ناتج عن شكل دماغه فقط بناء على أنه يخالف أشكال بقية الأدمغة بما يوجد فيه من الطيات الكثيرة التى هو منها مجلس لأحد قوى العقل . وهذا الكلام بعيد عن الصواب إذ كان شكل دماغ الإنسان لسمو عقله كبقية الحيوانات لكان يلزم أن الفرق الحاصل بين الإنسان واعلى حيوان كالفرق بين هذا وادنى حيوان لأن اختلاف دماغ الإنسان عن أعلى حيوان كاختلاف دماغ هذا عن ادنى الحيوان ولكن الفرق بين هذه العقول هو غريب جداً عن الفرق بين تلك الأدمغة . ولا توجد نسبة مطلقاً بينهما إذ أن اختلاف عقل الإنسان عن عقل اعلى الحيوانات من بعده هو ليس كاختلاف هذا الأخير عن الأدبى بل أكثر بما لا يقاس بالنظر إلى ذلك السمو ، ولا اختلاف بين الأشكال الدماغية فالحكم على العقل بكونه نتيجة شكل الدماغ باطل من اصله .

قد يعترض بأنه حسب تعليم أهل الدين أن جميع الاحساسات من النفس ، والنفس جوهر غير مادى ، والحال أن كل احساس بالشيء هو انفعال من ذلك الشيء وبما أن جميع المحسوسات هى مادية فاذاً ينتج أن النفس تنفعل من المادة إذ تحس بها ، ولهذا فهى جوهر مادى .

فالجواب : إذا كانت النفس تنفعل من المادة . فللاعتراض محله . ولكن النفس لا تنفعل البتة من المواد بل تكون فاعلة ادراكها لها بواسطة الآت الحس فعلا لازما . على أنه حين يتم الاحساس بالشيء يكون ذاك بواسطة الحواس الخارجية كالبصر والسمع ونحوهما . فهذه الحواس هى التى تنفعل من الشيء المحسوس لا النفس . وذلك كالشم مثلا فهو انفعال يتم فى العصب الشمى من ملامسة الذرات المنتشرة من المشموم لفريعاته المنبثة فى الغشاء النخاعى للأنف وهذا العصب ينقل ما انفعل به من تأثير الذرات إلى الدماغ وهناك يتم الاحساس على هذه الكيفية ، وهى أن الدماغ يخيل للنفس كالمرآة صورة ذلك المؤثر وهى تدرك حقيقته . وبما أن الادراك هو صفة فاعلية لا انفعالية لزم من ثم أن تكون النفس فاعلة لا منفعلة . ولما كان هذا الفعل للنفس لازما لا متعدياً دفعاً لتبادل الانفعال وإيضاحا لكون النفس لها حقيقة الادراك كان اعتراض المعترضين ساقطاً لا قيمة له .

٦ – يعترضون بأنه إذا كانت النفس بسيطة روحية خالدة فلا ينبغى أن تكون لها ميل مادى ، والحال أن النفس تميل للأمور المادية أكثر من ميلها للأمور الروحية ، فكيف تكون النفس هكذا مع أنه حسب الرأى العام أن كل حركات الإنسان وانفعالاته إنما هى صادرة من النفس . فنجيب :

(أولا) إن جميع الأفعال والأميال الإنسانية نظرا إلى الحيوانات مسببة من وجود النفس به لا صادرة من ذاتها لأن وجود هذه النفس هو سبب الحياة لجسده . وبما أن الجسد يطلب دائما مساعدة لقيامه من الأشياء المادية بناء على كونه ماديا وجب لأجل ذلك الطلب الضرورى أن يتصرف الإنسان بالماديات كالأكل والنوم والتعب الراحة .. الخ لكى تساعد ذلك القيام الحيوى للجسد .

(ثانيا) يوجد أميال وأفعال كثيرة للإنسان تدل على أنها صادرة من النفس لأنها غير متعلقة بشىء مادى كشعور الإنسان بميله إلى الخلود وكتخيله سراً بوجود حياة أخرى غير هذه الحياة الدنيا نظرا لعدم تصديقه امكان الملاشاة التامة له وكالمناجاة الخفية التى تحصل بينه وبين قلبه فى أمر حب الخير وبغض الشر والعزم على إصلاح سيرته إذا كانت بعيدة عن الاستقامة وكالندم على فعل الشر خوفا من قصاص مزمع أن يحل به . فكل هذه أفعال وأميال لا علاقة للجسد بها وإلا كانت تظهر فى الحيوانات . فاذاً للنفس فى الإنسان أميال خاصة بها وإذاً ليست كل أميال الإنسان مادية .

(ثالثا) ولو أنه يوجد للنفس بعض صفات جسدية إلا أن ذلك أمر ثانوى نشأ عن الاتحاد الكائن بينها وبين الجسد ولابد للاتحادأن يورث الأجزاء المتحدة صفات غير صفاتها الذاتية وربما غيرها تغييراً تاما . ولتقريب ذلك إلى الفهم نأخذ مثالا له مما نراه فى الاتحادات الكيماوية . فمثلا إذا سلط عمود كهربائى على الماء فإنه ينحل إلى عنصرين هوائيين وهما ، : الأكسوجين والهدروجين . ويشاهد أن كلا من هذين العنصرين يحوى صفات تضاد الماء بحيث أن أحدهما من شأنه أن يساعد على الأشتعال والاحتراق دائما والآخر من طبيعته أن يقبل الاشتعال إذ يلتهب بأقل شرارة تصل به . وكل منهما أخف من الهواء نظرا إلى الثقل النوعى حتى أن الأخير وجد أن ثقله نصف ثقل الهواء تقريباً . فإذا تأملنا الماء المركب من ذينك العنصرين نجد أن صفات الماء تضاد صفاتهما وهو يتألف منهما . كذا الملح فإنه مركب من الصوديوم والكلوريد وليس فى هذين العنصرين صفات الملح . وهذا لم ينشأ إلا من الاتحاد المذكور .

(رابعاً) يوجد للعقل الإنسانى أفعال كثيرة لا يمكن أصلاً أن يكون مصدرها المادة ، لأنها لا تدخل تحت نواميسها

كالتصورات الكثيـرة المختلفة التي ينتقل بهـا الإنسان فكريا من مركز الذهن إلى دوائر متسعة جداً من عالم المفهومات العقلية والحســية ، وهذا الانتقــال يتم على شكل أن التصــور الواحــد يولد الآخر وهــكذا بحيث أن الإنســان يمكنه أن يتصــور في لمح البصـر من المفهومات ما يحتــاج للتعبير عنه إلى وقت طــويل .

فذلك الانتقال ليس ناتجاً من قوى دماغه الضيق (١) لأن المادة مقيدة لا يمكن أن تأتي بمثل هذه الأفعال العظيمة (٢) لأنه لو أمكن للمادة أن تكفي ذلك لكنا نرى الحيوانات تفعل هكذا . والحال أنه لم يوجد قط بين الحيوانات حيوان يحوى تصورات إنسانية وأحكاماً عقلية وكل ما يرى في الحيوان من تفكر أو تصور هو ناشيء عن قوى حيوية أودعها فيه الله لحفظ نوعه . فكل أفعال الحيوانات ليست من قوى أصلية لعقله بل من قوى فرعية نتجت من تلك الحيوية ومن تأثيرات حواسه الدائمة على مركز المخيلة .

فقد ثبت أن أفعال الإنسان العقلية غير صادرة من قوة مادية فلابد أنها أفعال النفس . إلا أنها لابد أن تكون متغيرة عن حالتها

الطبيعية لانحصار النفس التي هي المصدر الوحيد لتلك الأفعال في الجسد الكثيف الذى لابد من أن كثافته تؤثر في لطافتها وتمنعها من أن تشاهد الأشياء على أصل حقائقها . وذلك كالعين الباصرة إذا وضع عليها نظارة زرقاء أو خضراء .

٧ - يعترضون قائلين لماذا يخشى الإنسان الموت لو كان له حياة أخرى يحيا بها ابدياً . فنجيب أن الإنسان يخشى الانفصال عن الجسد لا لأنه ينتقل إلى دار السعادة بل (١) لأنه يعلل نفسه بعلل جسدية تذهله عن معرفة الحقيقة (٢) لأن الانفصال بعد الاتحاد لابد أن يصادف مشقة وصعوبة لأن النفس ترغب من ذاتها أن تحافظ على مركبها وتكره الانفصال عنه . أما هذا الكره فتزيله الثقة بالحصول على السعادة فسمعان الشيخ وبولس الرسول وكثيرون من القديسين لم يخشوا الموت عندما عرفوا قرب مجيئه بل فرحوا وابتهجوا .

وبالجملة فالمطلوب منا أن نخضع عقولنا لتصديق وجود النفس في الإنسان تاركين ما يهدف به الكفرة في شأن ارتباط النفس بالجسد وفي البحث عن كيفية هذا الارتباط السرى إذ أن ذلك لا

يمكن للعقول البشرية أن تدركه نظراً إلى ضعفها بالنسبة لأمر عال كهذا ، كما أن كثيراً ما تعجز عن فهم أمور كثيرة نحن مضطرون بأن تسلم بها . ..فمثلا يصدق العقل باندفاع القوة العصبية من مركزها الذى هو الدماغ إلى دائرة الجسم لكى توعز إلى الأعضاء أن تتمم وظائفها . ولكن لا يدرك كيفية هذا الاندفاع من حيث الأصل والسبب . وتصديق العقل بكون الماء إن تبخر يتشرب من الحرارة أضعافا مضاعفة أكثر مما يتشربه قبل التبخر ولكن لا يدرك ذلك إلا على سبيل الشك . هكذا فليكن عدم ادراكنا كيفية الاتحاد بين النفس والجسد فى عداد هذه الأمور التى لا نفهمها ولكن نصدقها .

٥ – القدرة على التمييز

خلق آدم قادراً على التمييز بين الخير والشر . لا ينبغى أن يشك أحد فى أن الله خلق الإنسان عاقلا ، وكونه عاقلا يلزم أنه قادر على أن يميز بين الخير والشر ، والحق والباطل ، الأفضل والاردأ وإلا فلا فائدة من كونه عاقلا ولكن الله لم يضع فيه هذه القوة العقلية بلا فائدة فلا ريب أنه قصد أن يودع فيه قوة التمييز لكى يمقت الشـر ويجتنبه ويرغب فى الخير ويختاره ويسر بالأفضل ويؤثره .

وإن قيل إن آدم لم يكن يعرف الخير والشر ، قلنا ذلك لا يدل على عدم معرفته بل يدل على أنه لم يكن هنالك شر يعرف الفرق بينه وبين الخير . لأنه بضدها تتبين الأشياء ، ويدلك على معرفته وإدراكه أن يعرف حواء ويسميها بما هو موافق لها أى حياة (أم كل حى) وتمييزه إياها بعلامة التأنيث .

ومن فضل الله على آدم أنه لم يخلقه فى حالة الفساد ويعرض عليه حالة القداسة ليختارها ولكنه خلقه فى الطهارة وحذره من

السقوط فى الخطية . فكان آدم عائشاً فى لذة العيشة النقية وكان له أن لا يرفض هذه النعمة . فسقوطه فى الشر لم يكن من قلة تمييزه ولكن هو الذى أراد ذلك لأن الحياة التى كان يحياها قبل السقوط لم تكن حياة مرة حتى يروم اختبار غيرها ولكنها كانت حياة سعيدة ينبغى أن يكتفى بها .

ولا ريب أن الله لم يخلق فى الإنسان قوة التمييز عبثاً دون أن يكون له قصد صالح بذلك ، لأنه لو كانت قوة التمييز فى الإنسان لمعرفة الفرق بين الأشياء دون أن تختار لها شيئاً تحبه لكانت بلا فائدة ولا يليق أن يهب الله هذه القوة العظيمة بلا داع . فاذاً خلق الله فى الإنسان قوة التمييز لتحب الخير الأعظم فوق كل شىء وتفضله على كل شىء . قال الرسول « امتحنوا كل شىء تمسكوا بالحسن » فهذا هو المراد من قوة التمييز . إنها تختار الحسن وتفضله وتتمسك به .

ولكن مما يحزن أنه كما لم يستعمل آدم هذه القوة حسناً وترك أمياله تعبث بعقله فاختار العصيان عن عمل رضاء الله ، هكذا كثيرون مع معرفتهم الأكيدة ببطلان كل ما فى هذا العالم من مجد ونعيم ، ومع علمهم الذى لا شك فيه أن الله هو النصيب الصالح ولكنهم يختارون العالم ويعيشون له تاركين إلههم ومتممين قوله

تعالى : « تركونى أنا ينبوع المياه الحية لينقروا لأنفسهم آباراً مشققة لا تضبط ماء » (ار ٢ : ١٣) .

إن الشاب اليهودى الغنى الذى سأل المسيح « ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية » لما وضع المخلص أمامه الحياة الأبدية فى جانب وما كان له من أموال كثيرة فى جانب آخر وقال له إن أردت أن تكون كاملا فإذهب وبع أملاكك واعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء وتعال اتبعنى » (مت ١٩ : ٢١) فمع أنه عرف بقوة التمييز التى أودعها فيه الله أن ملكوت الله ابقى من المال الفانى إلا أنه لم يخضع شهوته لعقله بل أخضع العقل للشهوة وترك ملكوت الله واختار أمواله و« مضى حزينا » لأنه قاوم القوة الروحية التى أودعها فيه الله ولم يخضع لها .

ليت الجميع يقتدون بمريم النقية التى اختارت النصيب الصالح الذى لا ينزع منها » وببولس الرسول الذى قال « خسرت كل الأشياء وأنا احسبها نفاية لأربح المسيح » (فى ٣ : ٨) .

٦ - حـــرية آدم

خلق آدم حراً . لأنه لو خلق مجبراً على ملازمة القداسة لما كانت قيمة لقداسته . لأن القداسة التى تكون فى الإنسان رغماً عنه وبغير اختياره لا إعتبار لها . فلا قداسة بدون وجود حرية ، لأن المجبر على الصلاح لا يعرف هل بأختياره يفعل الصلاح وحبه إياه ، أم مجرد أنه مجبر عليه .

ولكن القداسة العظيمة المقدار هى تلك التى يعيش فيها الإنسان بمحض اختياره ورضاه . فالسعادة والشقاء تظهر قيمة كل منهما إذا وجدت الحرية والاختيار . فلو لم يكن آدم حراً لما كان سعيداً فى جنة عدن بل يصير كالطفل الذى لا يعرف معنى الحياة ولكن وجود الاختيار فيه جعله يشعر بالسعادة فى حالة طاعته واهتمامه بالسلوك كأمر إلهه ولهذا يقول الكتاب إن الصـــديقين يعيشون سعداء بشعـــورهم بطاعة أبيهم السمـــاوى (اش ١ : ١٩) ويقول عن الأشرار إنهم أشقياء بشعورهم بعصيانهم على إلههم (ار ٤ : ١٨) فلهذا خلق الله الإنسان حرا أى له أن يختار عيشة القداسة وله أن يرفضها . فآدم كان حرا مختارا قادرا على الثبات فى الحال الأول لو اجتهد فى ذلك .

والذى يبرهن على أن الله خلق آدم حراً هو أن الله أمره بأن لا يأكل من شجرة معرفة الخير والشر . فلو كان آدم بلا حرية واختيار لما أمره الله بذلك . فهذا الأمر يدلنا على أن الله كان عارفاً فى استطاعة آدم أن يأكل وأن لا يأكل . وفعلا مضت مدة على آدم وهو بحريته لم يرض فيها أن يأكل من تلك الشجرة .

وإن قيل لماذا أعطى الله للإنسان الحرية مع علمه الأكيد بأنه سيسىء استعمالها فنجيب أن الله اعطاه معها أيضاً قائدين يقودانه إلى الخير ويبكتانه على الشر ، وهما العقل والضمير . فقد أعطيا له لمساعدته على فعل الخير وهدايته اليه . فلكونه يغفل إرشادهما ويتبع أهواءه الباطلة يستحق اللوم وحده ويستوجب العقاب على عصيانه .

وهذه الحرية التى كانت لآدم هى لكل منا . فكل إنسان بالغ راشد حريته واختياره . نحن نشعر بذلك . وأن فى إمكاننا أن نفعل الخير أولا نفعله ، وكثيراً ما نمدح المحسن ونذم المسىء . فلو كنا مجبرين فى أعمالنا لما كنا نميز بين الأعمال الحسنة والقبيحة ، ولما كان لنا حق الذم والمدح لأنه لا يصح أن يمدح إنسان أو يذم على عمل صالح أو ردىء إذا كان مجبرا على ما يأتيه . وإذا كنا نؤمن أن لنا إلها صالحاً عادلا فكيف يمكن إذن أن يثبت الصالح على فضيلة ويجازى الشرير على رذيلة لم يصنعها وليس لهما فضل اختيارها ؟ ولكن ليتأمل الإنسان فى نفسه فيجد

أن فيه أختيارا وحرية فله أن يفعل هذا العمل وأن لا يفعله . وكثيرا ما شرع الإنسان فى عمل عدل عنه فيما بعد . قال أحد العلماء « فليصغ كل منا إلى ضميره ويستشير نفسه فيشعر بأنه حر كما يشعر بأنه عاقل » .

وهذه الحقيقة يقرها كتاب الله فقد قال تعالى لسليمان فى سفر الملوك « إسال ماذا أعطيك » وقال به أيضا « من أجل أنك سألت هذا الأمر » (١ مل ٣ : ٥ و ١١) فإذاً سليمان كان حراً فيما يطلب ، وكان له أن يطلب الغنى أو نفوس أعدائه أو الحكمة أو غيرها . وقال الله أيضاً « جعلت قدامك الحياة والموت . البركة واللعنة . فاختر الحياة لكي تحيا » (تث ٣ : ١٥) وقال المخلص للرجـل الغنى « إن أردت أن تدخل الحياة إن أردت أن تكون كاملا » (مت ١٩ : ١٧ و ٢١) وقال أيضاً « إن أراد أحد أن يأتى ورائى » (١٦ : ٢٤) وقال لأورشليم « كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جنـاحيها ولم تـريدوا » (مت ٢٣ : ٣٧) وقوله « أنتم دائمـاً تقاومون الـروح القدس » (أع ٧ : ٥١) وقوله « وأما من أقام راسخاً فى قلبه وليس له اضطرار بل له سلطان على إرادتـه » (١ كو ٧ : ٣٧) وقـوله « ألست أنا رسولا . ألست أنا حراً » (كو ٩ : ١)

قال أحد الأفاضل « قد يقول البعض لما يمنح الله الإنسان الحرية وهو يخطىء بها ويغيظه وهى مصدر الشر الأدبى فى العالم فنجيب أن الله منح الحرية للناس لأسباب عديدة :

١ – لإظهار قدرته وحكمته ليعلم أن عنايته فعالة لا يصدرها شىء فمع أنه ترك الناس أحراراً يفعلون ما يريدون إلا أنهم لا يستطيعون أن يشوشوا نظام الغاية المفروض منذ الأزل فلا يمكن أن يحدث مالا يسمح به الله ولا يمكن إلا يحدث ما يريده . كل ما شاء صنع فهو كمن له طيور كثيرة يسمح لها أن تطير ، ولكن بحكمة لا تدلك يجمعها كلها إليه .

٢ – عدل الله إذ يترك الناس يفعلون ما يشاءون ، ولكن يعاقب الشرير ويثبت البار بعدل كلى وعدم محاباة .

٣ – بيان صلاحه وجوده إذ لم يشأ أن ندرك السعادة بلا اشتراكنا باستحقاقها ، بل أن نشترك لنوصل إليها مع مساعدته ونعمته . وهذا يولينا شرفاً أكبر وفخراً أعظم .

٤ – بيان عظمته وغنى مواهبه فلو جعل تعالى مكيالا ومقياساً لما يجزى به عباده من الخيرات والنعم لما ظهرت عظمته بمقدار ظهورها بمنحه الناس الحرية ليضاعف استحقاقهم ما قدروا ، وهو يزيدهم أبداً غنى بالمواهب والنعم فيشبهه غنياً يفتح كنوزه للمساكين ليحملوا منها ما استطـاعوا دون أن يحدد لكل منهم كمية معينة .

٥ – ليظهر تعالى أنه ليس كالملوك الذين يخشون رعيتهم فيضيقون عليهم الخناق حتى لا يثورون عليهم ، فهو يترك للناس حريتهم ومع ذلك يتمجد فيهم . يتمجد فى الشرير بمعاقبته ، وفى البار باثابته .

٦ – لكمال زينة العالم فإن فيه ما يفعل ولا يفعل به وهو الله . وما يفعل به ولا يفعل بنفسه فى غيره كالجماد . فكان لازماً أن يكون فى العالم ما يفعل ويفعل به كالإنسان الحر . فمن هذه الوجوه يقتضى أن يكون الإنسان حراً مختاراً .

وقد يعترض أيضاً على حرية الإنسان بالقول : لماذا أعطى الله الإنسان الحرية وهو عالم أنه يستخدمها للضرر ؟ فنجيب نعم إن الحرية كثيراً ما يسىء الإنسان استعمالها ويضر نفسه بها ولكن هذا لا يمنع أن يمنحها الله له . فالشمس وهى أجمل وانفع ما فى الوجود كم آذت كثيرين وكم أضرتهم ، والماء وهو قوام حياة الناس كم أهلك الألوف وكذا المواهب التى يجود بها على بعض الناس كالفصاحة والذكاء وغيرهما فإن كثيرين يستخدمونها لهلاكهم . ولكن هذا لا يجعل الله يمتنع عن خلق الشمس والماء ولا يجعله يحجم عن إعطاء المواهب . لأن هذه لا تضر بنفسها بل يضر بها من يسىء استعمالها . هكذا الحرية أعطاها الله للإنسان ليستخدمها فى الحصول على رضاه . ولا يمنع الله عن اعطائها أن بعضهم يستخدمها لمضرتهم ولإغاظته تعالى . فشأن الإنسان هنا كشخص أعطاه صديق له سلاحا ليدافع به عن نفسه فما كان منه إلا أن قتل به ذاته . فلا لوم على الصديق المعطى لأنه كان ينوى به خيراً بما أعطاه ولكن اللوم على من أساء استعمال العطية

ولم يستخدمها فيما وهبت له وكم يستحق الله الشكر والحمد لأنه أعطانا هذه الحرية وهو عالم أننا كثيراً ما نسىء استعمالها ونغيظه بها لأنه لا يريد أن يمنع عنا شيئاً حسنا ، ولو أنه عالم أننا نستخدمه سلاحا لمحاربته .

قال مار يعقوب السروجى فى الكلام على هلاك يهوذا التلميذ الذى باع يسوع سيده « العارف بالكل أنزل ذاته لقلة المعرفة من أجل مراحمه الكثيرة إلى خليقته . جبل آدم مع كونه عرف أنه لا يطيعه . مع كونه عارفا كل شىء لم يشأ أن يبطل شيئاً . أدخله الفردوس وهو عالم أنه لا يثبت فيه . وهو باختياره الصالح أدخله لكى يثبت . أكثر له الوصية أن لا يأكل من الشجرة ولو تصرف كمعرفته لما أمر هكذا . ولو فعل كل شىء كعالم بكل شىء لما خلق شيئاً . لما خلق الشيطان وهو عالم أنه سيسقط من درجة الملائكة . لما صور المجدف فى بطن أمه . لما صنع للكافر فماً ولساناً يكفر به بهما ، أدخل الرب آدم ليثبت فى الفردوس وأما خروج آدم منها بسبب خطيئته فمن ذاته هو . أمره أن يحفظ نفسه من الشجرة وإذ لم يحفظ كان ذلك منه هو . وهكذا قل فى الشيطان ويهوذا »

هناك مشكل يقوم حول هذه المسألة . إذا قيل مع وجود الحرية والاختيار فى الإنسان إن الله يساعده فى أفعاله فكيف تتفق حريته ومساعدة الله له لأن ما يساعد الله عليه يلزم أن يكون ، والحرية تستلزم أنه قادر أن يفعل وأن لا يفعل . وأفضل جواب

على هذا المشكل صاغه أحد العلماء في هذه العبارات قال : « إن مساعدة الله على الأفعال الحرة هي طبيعية وبدون واسطة بما أنها تجعل القوة على الفعل أهلا للعمل وتبين لها ما يلزم أن تختار وتساعدها على اختياره لكنها تكون مجردة بالنظر إلى حقيقة إبراز الفعل أو إهماله بنوع أن مساعدة الله لا تسبق فتحرك الارادة تحريكا طبيعياً على العمل ولا تحملها عليه بل تكون بمنزلة شرط لابد منه في العمل وتترك الإرادة تجزم على ما تصنع باختيارها ويكون في سلطان الارادة أن تستخدم كما تحب المساعدة التي هي مجردة بالنظر إلى أنواع الأفعال وأفرادها وعلى هذا الرأي يكون اختيار العمل والجزم عليه متعلقا بارادة الإنسان الحرة التي هي ربة أفعالها والمساعدة لا تجعلها تجزم ما تصنع بل تكون لها بمنزلة شرط ضروري بالاطلاق بنوع أنه دون هذا وتختار ما تصنع بل تكون لها بمنزلة شرط ضروري بالاطلاق بنوع أنه دون هذا الشرط لا تبرز الارادة فعلا ما ولا تختار شيئا . والحاصل أن المساعدة الإلهية بمنزلة النور للأعمال التي تستلزم النور في صنيعها . فكما أن الإنسان لا يستطيع أن يقرأ ليلا بلا ضوء هكذا لا يستطيع أن يفعل إنسان شيئاً بدون مساعدة الله . وكما أن ذلك النور يمكن الإنسان أن يستخدمه بأي وجه ، كأن يقرأ مثلا كتباً روحية أو كتبا عشقية غرامية . هكذا يمكنه أن يستخدم مساعدة الله على الأفعال من حيث هي طبيعية لما شاء من

أعمال صالحة أو شريرة بحسب أختيار إرادته . وعلى ذلك تكون المساعدة من قبل الله لازمة ولابد منها ولا يستغنى عنها في كل فعل ، وتستمر الإرادة حرة سالمة تصنع ما تشاء بامداد المساعدة الإلهية ، وهنا اعتراض آخر . لماذا يحسب الشر على إرادة الإنسان ولا يحسب شيء منه على الله الذي يساعد الإرادة على الفعل الأثمي . وقد أجاب ذلك العالم أيضاً على هذا الاعتراض بما يأتي :

« إن مساعدة الله عامة ومجردة عن التأثير بأنواع الأفعال وأفرادها وإرادة الإنسان هي التي تختار ما تستخدم به تلك المساعدة التي لابد منها في تلك الأفعال . فالله لا يمكن إلا وأن يساعد على تلك الأفعال لأن ذلك من الكمال وهو يلزم أن يكون مصدر كل كمال وأن تتعلق خلائقه به في كل ما تصنع . لكنه يساعد على الأفعال من حيث هي أفعال طبيعية . والأفعال من حيث هي طبيعية لا فرق فيها بين جيد وردئ بل جميعها جيدة . ألا ترون أن المشي للكنيسة للصلاة والمشي للسرقة هو مشي واحد لا فرق فيه من حيث هو فعل طبيعي ولكن الفرق هو من حيث أن الفعل فعل أدبي أي كونه صالحاً أو طالحا . وفي هذا يقوم الشر وهذا هو فعل الارادة لا فعل مساعدة الله الذي يريد أن تكون أفعال جميع الناس صالحة » .

٧ - امتحان آدم

كان امتحان الله لآدم ضروريا لبيان القداسة ، فلذلك حذره الله من الأكل من شجرة معرفة الخير والشر لكى يعرف نفسه فى حالة امتناعه عن الأكل أنه خاضع لمشيئة الله ، وأن الله راضى عنه . وفى حالة تقدمه للأكل أنه عاص على الله وأنه تعالى ساخط عليه .

إن الطفل الصغير لا يحاسب على الخطأ الذى سيرتكبه لجهله وحداثه سنة ، ولكن حينما يبلغ سن الرشد يحاسب على كل صغيرة وكبيرة . هكذا آدم لو لم يعرض عليه هذا الامتحان لكان كالطفل الصغير لا قيمة لطاعته ولا تثريب عليه فى عصيانه إذ تعتبر الطاعة والعصيان سواء . أما الامتحان فهو يرفع قيمة القداسة ويحط من شأن الفساد ، كما وأن به يستطيع أن يعرف الإنسان نفسه .

قال القديس يوحنــا ذهبى الفم عن شجرة معرفة الخير والشر « وإنما سميت شجرة معرفة الخير والشر بهذا الأسم فى الكتاب المقدس لأنها ستكون سبباً وشاهداً لعصيان الإنسان الأول أو أمانته . فقال الله لآدم « من جميع شجر الجنة تأكل وأما شجرة

معرفة الخير والشــر فلا تأكل منها فإنك يوم تــأكل منها موتاً تموت » فما أعجب جود الله الذى أراد أن يحذرهما من السقوط وينقذهما من العصيان الذى يحرمهما من نعمته تعالى » وقال آخر « ولما كان أول واجبات الخليقة الطاعة للخالق فقد نهى الله آدم عن الأكل من هذه الشجرة اشعاراً بوجوب الامتثال لأمره كون السعادة لا تعطى إلا بمنزلة إكليل ، ولا يكلل إلا المنتصر ، ولا ينتصر إلا المحارب ، ولا يحارب إلا من له عدو . فسمح الرب للشيطان العدو الألد أن يدخل الفردوس ويحارب آدم حتى إذا انتصر آدم ينال إكليل السعادة الأبدية »

فالله بامتحان آدم أراد أن يكون رجلا عارفا نفسه ، ومعرفة النفس ضرورية سواء كانت النفس مطيعة أم عاصية ، ومعرفة النفس فى حالة الطاعة تزيد الإنسان من الإقبال عليها نظراً لشعوره بلذاتها ، ومعرفة النفس فى حالة الفساد تبعد الإنسان عنه لما يذوقه من مرارته . قــال الرسول بولس « امتحنوا أنفسكم » (٢ كو ١٣ : ٥) وقال إرميـا « لنفحص طرقنا ونمتحنها » (مرا ٣ : ٤).

قد يقال كيف يحذر الله آدم من شر لم يعرفه أو يجربه ومن عقاب لم يراه أى الموت . فنقول نعم إن آدم لم يدرك قوة كلام الله وشدة العقاب الذى أنذر به تمام الإدراك إذ لم يكن قد اختبر شيئاً

منه لكنه أخبر بخطأ الملائكة الساقطين فكان له منهم عبرة أما فيما يخص العقاب فلا شك أن الوحوش المفترسة كانت تفترس غيرها فى أيام آدم فلابد أنه شاهد موت بعضها فعرف ما هو الموت وفهم النهى الإلهى والقصاص المتعلق بالتعدى . فضلا عن ذلك فإن عقاب الموت الزمنى لم يحتمه الله على آدم بعد السقوط حالا بل قضى عليه بعد مدة طويلة عاشها بعد السقوط فيجب أن نفهم أن كيفية الموت المشار اليه نعرفه بمقابلته بالحياة الصالحة الأدبية والروحية الأبدية التى كانت للإنسان فى حالة الطهارة .

قد يقول آخر كيف يعتبر الله أمراً طفيفاً كالأكل من الشجرة معصية وذنباً وبرهاناً على الطاعة من عدمها : فنجيب . نعم إن أكل الثمرة بنفسه غير كبير لكن غايته الطاعة لله كبيرة جداً . قال القديس يوحنا ذهبى الفم « والله صنع مع آدم ما يصنعه مولى سخى إذ يعطى شخصاً داراً فسيحه يسكنها على أن يؤديه أجره دون الطفيف لا رغبة فى الأجرة بل محافظة على إقرار الساكن بأن الدار ملك المولى وبأنه محسن إليه . هكذا صنع الله إذ أمر آدم أن لا يأكل من شجرة معرفة الخير والشر ليعلم أن الله مولاه وأن كل ما فى الدار الدنيا له ومنه تعالى » .

وقد يقول آخر « كيف يوافق جود الله وضع الإنسان فى ظروف كهذه وهو كان يعلم أنه لا يحفظ الوصية مدة طويلة بل كان

يرى مخالفته قبل وقوعها . فنجيب أن علم الله بسقوط آدم لم يكن علة لسقوطه . بل أن السقوط كان علة لعلم الله . ولو كانت معرفة الله السابقة بسقوط آدم تضطره إلى منع هذه المخالفة لوجب علينا أن نقول إن معرفة الله بأثام جميع الناس تحتم عليه منعها قبل وقوعها .

وبالجملة نقول إن آدم كان مضطرا إلى هذه الوصية (١) فإنه أوتى كل القوى الأدبية وخلق صالحاً قديساً فبقى عليه أن يقوى هذه القوى ويعززها بموازرة الله . والمراد أنه بقى عليه أن يكون قديسا باختياره . فإن الاختيار البشرى لا يقوى إلا إذا راعى الإنسان قانونا وضع عليه وظل يراعيه زمناً طويلا إلى أن يتقنه ، ويصبح إتقانه له عادة ومراعاته له ملكة حتى لا يعود يختار غير ما يمليه عليه القانون . (٢) إنه كان مضطراً إلى وصية خارجية وضعية . فإنه وإن تكن الشريعة الأدبية منطوية فى وجدان الإنسان فلابد به فى سير الحياة كما لا يخفى على الفطن اللبيب من سنوح فرصة ليتم بها تأدية الشريعة ويعمل بفروضها ، أى أنه تعوزه مواضيع تستدعى أن يظهر بها اتقاناً لهذه الشريعة ومطاليبها ولذا فإن الوصية التى وضعها الله على جدينا الأولين كانت هى الفرصة والموضوع المطلوب ليعملا بأدبيتهما . (٣) إن الإنسان كان مضطرا إلى وصية لكى ينال ما كان متمتعاً به من الخيرات

باستحقاق منه ، وذلك بمراعاته لهذه الوصية طوعاً باختياره ، كأن هذه الخيرات كانت هى المكافأة والمقابلة لطاعته ، وأيضاً لكى لا يتشامخ الإنسان علوا لفرط الخيرات التى كان حاصلا عليها بلا استحقاق من عبده .

ثم إن الوصية الإلهية قد أعلنت بأجلى بيان صلاح الله وحكمته فإنه (١) لما خلق الإنسان لم يلبث أن اعطاه وصيته مخصصة لترويضه وتقويته فى طريق الصلاح أى أنه صار مهذباً ومطهراً لأخلاقه (٢) أراد أن يعلمه من نعومة أظفاره أن الشيء الوحيد الذى يعود عليه بالنفع العميم ويجلب اليه الخيرات السماوية فى حياته المستقبلة إنما هى الطاعة التامة لأمره تعالى وذلك بعزم ثابت لا يعتريه تردد وتقلب فى التأدية . وهذه الوصية كانت غاية فى السهولة لإمكان رعايتها بل جديرة بعبادة الإنسان فإن مشيئته تود طبعاً أن تقوم بأداء الأشياء السهلة فى أول الأمر حتى تتدرج فى غيرها صعبة ثم إنه كان من قصدها بسهولتها أن لا يصعب أمرها على الإنسان لكى يستطيع أن يقاوم تجارب الشرير التى كانت لتطرأ عليه بسابق علم الله ثم أنه تعالى قصد بسهولتها هذه أن لا يتذمر من ثقلها الإنسان إذا تعداها وتجاوزها (٣) بأنه تعالى توعد آدم بالعقوبة إذا آثر مشيئته الله تعالى وما ذلك إلا لكى يمكن آدم من الطاعة بداعى الخوف والفزع من العقاب عن داعى المحبة والوفاء للخالق العظيم .

٨ - شجرة الحيـــاة وشجرة معرفة الخيـر والشر

أولا - شجرة الحياة . قال بعضهم إنه كان لهذه الشجرة خاصة تجديد قوة الإنسان حتى أنه مع كون جسده قابلا للفناء لأنه من تراب الأرض فإنه لو تناول من هذه الشجرة لعاش إلى الأبد بدليل قوله « لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة ويحيا إلى الأبد » (تك ٣ : ٢٢) وذهب بعضهم إلى هذه الشجرة الدائمة الخضرة والنضارة كانت رمزاً إلى الحياة الأبدية الموعود بها آدم بشرط الطاعة الكاملة ، وإن أبوينا الأولين كانا يتناولان منها كأنها سر مقدس مدة برهما الأصلى وأنها كانت رمــزاً إلى المسيح لأن « فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس » (يو ١ : ٤) .

ومن ذلك سهل إثبات أن الإنسان خلق لكى لا يموت بالضرورة لأن وضع الموت حتما على الإنسان المصنوع فى حالة الاستقامة والبرارة للسعادة الأبدية لغير ذنب جناه مغاير لعدالة الله وحكمته فنشأ عن ذلك أنه لو لم يرتكب الإنســان الخطيئــة لما عرف الموت أبداً .

ثانيا – شجرة معرفة الخير والشر . ويظن أن هذا الأسم دعيت به الشجرة بعد السقوط لأنه قبل السقوط لم يكن أبوانا قد عرفا الشر وما يستطيعان معرفته بمجرد النمو الفعلى ، لأن ذلك إما بالشعور بالخطأ وإما بمشاهدته فى آخر . واعلم أن هذه الشجرة لم تدع شجرة معرفة الخير والشر من حيث أنه كان فيها قوة تعطى جدينا الأولين معرفة الشر والخير ، التى لم يعرفاها ، بل من حيث الوصية التى كانت متعلقة بها أنهما متى أكلا منها كانا مزمعين أن يختبرا ما بين الخير والشر من الفرق الجسيم .

قال بوش (سميت شجرة معرفة الخير والشر لأن آدم بأكله منها عرف الخير بفقده له وعرف الشر باختياره إياه) وقال فرنكا (هذه المعرفة هى إدراك الفرق بين الخير والشر لا المعرفة والاختبار) وقال جاكوبوس (أن هذه الشجرة رمزا إلى المعرفة الالهية التى لا يجوز للإنسان أن يشتهيها لأنه لا يحيا باتباع رأى نفسه ومشورتها ، بل بالايمان وبإخضاع عقله ، وإرادته لله) .

وقال بعض المفسرين « كان الشر قد دخل قبل ذلك بسقوط بعض الملائكة فلم يرد الله أن يعرف الإنسان . وأكله الثمر المنهى عنه فصل بينـــه وبين الله لأن معرفة الشـــر نشأت بأكله من تلك الشجرة » .

٩ – سوء استعمال آدم الحرية

إن آدم قد أساء استعمال الحرية الموهوبة له من الله . فالحرية التى أعطيت له كان فى إمكانه أن يستخدمها للخير أو الشر . للطاعة أو العصيان . لاستمرار رضاء الله عليه أو لجلب غضبه . فكان فى حالة طاعته حاصلا على كل أسباب السعادة وأهمها سرور الله به . ومن ذا الذى لا يحسب أن من أهم دواعى بهجته أنه موضوع فرح الله خالقه . كل هذا كان آدم يعرفه تمام المعرفة ولا ريب أم مبدعه قد أعلنه له أى أفهمه أن سروره به يكون فى حالة طاعته له وبالعكس . إلا أن آدم أساء استعمال الحرية التى منحت له . فالحرية التى أعطاها الله له ليكون بها سعيداً بالطاعة أخذها الإنسان واستخدمها ليكون بها شقيا بالعصيان .

قد يقال إن حواء سقطت بغاية الشيطان ، وآدم سقط بغواية حواء ، ولكن ولو كانت حواء قد اغويت بخديعة الشيطان فإنها خالفت وصية الله باختيارها غير مسوقة ولا مكرهة على ما فعلت ، ومع أن آدم أغوى بأقوال حواء الخلابة التى رمته بها حتى قنع وارتضى ، إلا أن معصيته كانت باختيار منه محضاً . فباطلا يعتذر آدم بأن المرأة أغوته . وباطلا تعتذر حواء بالحية فإنه كان لهما حرية يستطيعان بها أن يريا الغواية ولا يسقطان بها ، وشأنهما كشأن إنسان أعطى له سيف ليدافع به عن نفسه فما

كان منه إلا أن ضرب به ذاته . فالحرية أعطيت للإنسان ليدافع بها عن نفسه ولا يدعها تهوى به وتسقطه ولكنه حمل ذاته بالحرية إلى الخطأ فالهوان .

فليعلم كل إنسان يرى فى نفسه القدرة على ملازمة القداسة والابتعاد عن النجاسة أن اختياره الثانية ورفضه الأولى يكون إساءة منه فى استعمال الحرية التى وهبها الله له ليكون سعيداً .

إن الذين يشكون من الشقاء فى العالم ويتذمرون على وجودهم ليس لهم الحق فى شكواهم لأن الله خلقهم ليكونوا سعداء بأختيار القداسة فهم الذيم حملوا أنفسهم إلى الشر الذى حذرهم الرب منه وصيروا أنفسهم فى الشقاء الذى يشكون منه ، ولم يكن لله دخل فى سقوطهم فيه ، فهم أوقعوا أنفسهم فيه بمحض إرادتهم كقول الرسول . « لا يقل أحد إذا جرب إنى أجرب من قبل الله . لأن الله غير مجرب بالشرور وهو لا يجرب أحداً . ولكن كل واحد يجرب إذا انجذب وانخدع من شهوته . ثم الشهوة إذا حبلت تلد خطية ، والخطية إذا كملت تنتج موتا .. كل عطية صالحة وكل موهبة تامة هى من فوق نازلة من عند أبى الأنوار » (يع ١ : ١٣ - ١٧) .

ولقد رد الرسول بهذا القول على كثيرين ممن يظنون أنهم يسقطون فى الخطيئة لأن الله لم يمنعها عنهم ولأنه خلقهم فى أحوال تحملهم على الإثم وهم عاجزون عن الانتصار عليه . فبرهن الرسول أن أصل سقوط الإنسان فى الخطيئة هو ميله الملتوى إلى اللذة البدنية والمجد الباطل ولا دخل لله فى ذلك . فلا تنسب شرك

إلى الله ولا تلم غير نفسك التى لا تستطيع ضبطها وقد خلقك الله قادراً على ذلك فإن لم يفتح الإنسان قلبه لدخول التجربة ، حاصره الشيطان عبثاً .

١٠ - أجرة الخطيئة موت

إن أجرة الخطيئة موت . ما أصدق هذه الكلمة التى يخال لنا أنها كانت تتردد على لسان آدم عقب سقوطه . عقب أن أحس بشناعة الخطيئة ولم يكن يعرفها قبلا حيث رأى كل شىء يتغير أمامه فاحساساته الطاهرة التى كان بها مفعما بالسلام تحولت إلى إحساسات دنسة مملوءة شقاء وغماً . وضميره الذى لم يكن له ما يزعجه ويبكته أصبح كالبركان الثائر أو كالجسم يتقلب فى النار وهكذا كل ما كان فى الإنسان حياً بالقداسة أصبح ميتا بالشر ، فالعين التى كانت لا ترى إلا ما يبهج أظلمت بتطلعها إلى الفساد . والأذن التى لم تكن تسمع ما يطرب صمتت بسماع صوت الغواية وصدعت أصغاء إلى حكم الدينونة . والأنف التى لم تتعود إلا شم الرياحين صارت تتأذى بوصول رائحة الخطية الكريهة اليها . واللسان الذى لم يكن ينطق إلا بمجد الله تحول إلى لسان شاك قذر نمام . والقلب الذى كان كعرش يتبوأ عليه ملك السلام حل فيه سيد الشقاء وسلطان الحزن . وبالجملة فالأيدى التى كانت تبسط

بالابتهال للعلى أثمت . والأرجل للشر اسرعت وهكذا صار الإنسان كله مريضاً بالخطية « ليس فيه صحة بل جرح واحباط وضربة طرية لم تعصر ولم تعصب ولم تلين بالزيت » (إش ١ : ٦) .

فما اردأ الخطية وما أحط شأنها فقد انزلت بالإنسان كل الويلات التى تناولت نفسه وجسده وكل شىء .

١ - الويل الذى أصاب نفس الإنسان بالخطية ، فقد أفقدته شركته بالله لأنه « أى خلطة للنور مع الظلمة وأى شركة للبر مع الأثم » (٢ كو ٦ : ١٤) فبعد أن كان الإنسان يسر بسماع صوت الله أصبح يرتعب منه ويخافه كل الخوف ، ثم صار الإنسان مائتاً روحياً وتم فيه القول « موتاً تموت » ولا يقصد بذلك موته الجسدى لأنه عاش كثيراً بعد الخطيئة ولكن يقصد موته الروحى . فقد أضاع الإنسان برارته وأفسدها بإرادته فصارت تميل إلى الشر أكثر من ميلها إلى الخير ، وصورة الله التى رسمت فى نفس الإنسان وخصوصاً فى قواه كالعقل والاختيار قد فقدت كثيراً من كمالها وطهارتها أثر المعصية .

٢ - الويل الذى أصاب جسده . فقد أصبح الإنسان بعد الخطية معرضاً لكافة الأمراض والأوجاع ، وقد حكم الله عليه بالتعب والشقاء ، وفوق ذلك يحل به الموت الجسدى الذى به تنفصل روحه عن جسده .

٣ - الويلات التى حلت به فيما يخص حالته الظاهرة . (أ) خرج من جنة عدن منزعجاً مطروداً (ب) ضعفت سلطته على كل

الحيوانات (جـ) لعنت الأرض بسببه . وبالجملة كما قال الرسول بولس « إن الخليقة كلها أخضعت للبطل » (رو ٨ : ٢٠) .

قال القديس يوحنا ذهبى الفم « سقط الرجل والمرأة من مرتبتهما السامية وخسرا عدم ميتوتهما لأن الخطيئة بدخولها فى قلبهما بعصيانهما قد ألقت فيه جرثومة الموت المدمرة وأمسيا غارقين فى ظلمة الجهل بعد أن كان ثاقبى العقل ووافرى الحكمة » .

أن الخطيئة حقرت آدم ، فبعد أن كان مهاباً ومحترماً أصبح مذلولا ومطروداً . هكذا فى كل زمان ومكان يعيش الأبرار فى كرامة مضاعفة ، والأشرار فى ذل واحتقار . قال تعالى « اكرم الذين يكرموننى والذين يحتقروننى يصغرون » .

فما أشنع الخطيئه لأنها تشوه الجميل وتفسد الحسن . فما كان أجمل آدم وهو فى حالة القداسة وما كان أحسن صورته الداخلية وهو يطيع الله ولكن انظر إليه الآن وقد تشوه بدخول الخطيئة إلى قلبه فأصبح النظر إليه مكروها بعد أن كان محبوباً ومشتهى .

قال القديس مكاريوس المصرى « فالرئيس الخبيث ألبس النفس بل ألبس جوهرها الكامل بالخطيئة ونجسها بكليتها وأخذها إلى ملكوته أسيرة ولم يدع عضواً منها معتوقا منه لا الأفكار ولا العقل ولا الجسد بل ألبسها جلباب الظلام لأنه كما أن الجسد لا يتألم منه جزء أو عضو بمفرده بل يتألم الجميع معاً كذلك لما تأملت النفس الكاملة بفاعلية الشر والخطية . فالخبيث إذ كسا النفس كلها التى هى أعظم الأجزاء أو الأغصان التى للطبيعة البشرية بحقده يعنى الخطية أصبح الجسد كله مائلا إلى الألم والفساد .

١١ – غواية الشيطان

سقط الشيطان من رتبته باختياره وحريته وتحولت فيه قوات الخير إلى قوات الشر ومن ثم لما رأى الإنسان قائما سعيدا فى جنة عدن حسده وغار منه . وحيث أن الشر قد صار طبعاً له فأراد أن يستخدم هذه القوة الشريرة ليفسد طبع آدم الحسن وللان ايضا يجب أن يشترك الغير معه فى الشر لكى يتسلى بأنه ليس هو وحده المخالف لشريعة الله . اعتزم الشيطان محاربة ادم وسهل له الأمر أنه كانت هناك وصية لآدم من الله « أن لا يأكل من شجرة معرفة الخير والشر لئلا موتا يموت » فجاء الشيطان إلى آدم كما يجيء الذئب لافتراس الخروف ، أو الثعبان لابتلاع الحمام ، أو اللص لسلب الكنوز .

ولنتأمل هنا قليلا فى أساليب خداع الشيطان وغوايته .

١ – إنه لا يأتى للإنسان وجها لوجه بل بواسطة . فلم يذهب هو بنفسه إلى آدم وحواء ليغويهما بل استخدام الحية اللغوية . حبك الشرك وسلمه للحية لتنصبه للإنسان . أتقن السم وأعطاه إياها لتوصله . كتب رسالة الضلال وأرسلها مع ذلك الرسول . وبهذه الطريقة تمكن من نوال بغيته . وهذه الطريقة عينها

يستخدمها دائماً وإلى الأبد . إنه لا يأتى إلى الأنسان مباشرة طالبا منه السقوط بل يسلط عليه أصحابه أو اقرب الناس إليه . فكانت ايزابل حية الشيطان لآخاب . وكان الشيطان الحية لرحبعام بن سليمان . فأحذر صديقك الذى يغريك ليقودك إلى الشر تحقق أنه وهو يكلمك بلسان أنعم من الزيت ينطق بلسان الشيطان ويبلغك رسالته وأنت لا تدرى .

٢ – إنه يأتى بصورة محب ودود . تقدمت الحية بغواية الشيطان مثل الحبيب ودخلت بلطف لكى تسرق الطاعة . دخلت تتكلم كمشفقة وهى تدبر الهلاك فقالت للمرأة « أحقا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة » فهنا يخفى الشيطان تحت ستار الاستفهام . أخفى خبر الشجرة وسأل عن الأشجار التى فى الفردوس لكى تبوح حواء بما فى قلبها . سمعت حواء أنها تسمع صوت محب وقريب فأمالت أذنها لتتعلم منه . أجابته بسذاجة وحسن نية « من ثمر شجر الجنة نأكل وأما ثمر الشجرة التى فيها فى وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا » قال أحدهم « ويلك يا حواء اتكلت على من يغشك . أيتها الحمامة البسيطة لماذا تظهرين للحية سرك . قامت الحمامة لتتكلم مع التنين

وكمثل الصديق أظهرت السر لمن يغشها . نظر الخبيث أنها بدأت تثق به نظر الصياد أن فريسته بدأت تدنو من شراكه . بدأ يتكلم فى فم الحية قول الموت مغلفاً من الخارج بالمحبة والاشفاق فكان لسان حاله يقــول لحواء : ها أنى أتكلم معــك لأنى أحببتــك وها أنا أقــدم لك نعمة فاقبلى مشورتى . والســـر الخفى أظهــره لك بسهولة » .

٣ – وجوب التمسك بكلام الله كما هو . لما بدأت حواء تصغى لوساوس الشيطان وجد اللعين فى قلبها مكانا . فالسبيل لنجاتنا من اسئلة الشيطان ووساوسه أن نصدها بكلام الله ومواعيده الامينه كما صده سيدنا يسوع المسيح وهو يجرب منه وحيث أن حواء سمعت كلام الله بالامتناع عن الأكل من شجرة معرفة الخير والشر فلم يكن يصح لها التفكير أو الاصغاء إلى سؤال كهذا : « أحقاً قال الله » فمتى ساغ لى أن أقول « أحقا قال الله » مع علمى بأن الله تكلم فأكون بذلك قد كفرت بذلك قد كفرت بأقواله . ومن هنا نعرف أن حواء لم تتمسك بكلام الله كما يجب ، لذلك أغويت . فإنها زادت على كلام الله القول « ولا تمساه » والذى يزيد حرفا على الله يفهم منه أنه غير متمسك بكلام الله . أما الذى يتمسك بكلام الله فلا يخطىء إذا أجاب . فلم يقل الله لآدم وحواء « ولا تمساه » بل قالته حواء ، وسواء كان الباعث لها عل ذلك

الجهل والتساهل والرغبة فى تمثيل الله فى شكل مستبد فى أحكامه فعلى كل حال قد خرجت عن حد الخضوع الكامل والتسلم التام لكلمة الله المقدسة « من وصاياك اتقطن . لذلك ابغضت كل طريق كــذب » .

٤ – أن فتح باب القلب لوساوس الشيطان هو أول درجات السقوط . إن البركة مقترنة دائما بالطاعة . والطاعة لله يقتضى أن تكون كاملة لا مجال فيها لكيف ولماذا . متى تكلم الله فحينئذ يغلق كل باب تعجب أو استفهام . تكلم يارب ونحن نسمع ونطيع . والشيطان لكى يسهل سبيل السقوط يلقى الوساوس أولا ، والإنسان يظن أن الوساوس شىء هين فيسمح للشيطان أن يلقيها فى قلبه ولكنها وإن كانت بذرة صغيرة إلا أنها تنمو حتى تثمر سقوطاً . فلما سمحت حواء للشيطان أن يقول لها « أحقاً قال الله لا تأكلا من شجــرة الجنة » سمعت منه ثانية القول « لن تموتا أبداً » ومعنى ذلك أن النفس التى تسمح لهواجس الشك أن تجول فى بالها ينتهى بها الأمر أخيراً إلى رفض الكلمة . قال أحد الأفاضل « وهى حقيقة يتبين لنا منها الخطر الهائل الذى يتهدد التصريح لأقل شىء من الشك أن يطرق باب القلب من جهة صدق كلام الله مهما كانت حسنة فى الظاهر لا تختلف عن الكفر الصريح . والذى يتجاسر على مناقضة الكلمة أو الحكم فيها عقلياً ليس هو أبعد من منكر وجود الله تعالى ، بل كلاهما فى شرع

الكفر واحد . إذ لولا أن حواء أظهرت عدم مبالاة بالأمر الإلهى وتساهلت فى أقواله تعالى لما وصلت بالاصفاء إلى الكفر الصريح وهى كأنها تثبت فى الإيمان مع أنها تثبت فى الكفر ، وقد بلغ بها الحال إلى مناهضة خالقها لأن الكلمة لم يبق لها سطوة على قلبها وضميرها وذهنها »

إن أول خطوات سقوط حواء هى سماعها قول الحية « أحقاً قال الله » ومن ثم أخذت تهوى من درجتها السامية إلى أن دفعت ذاتها للحية وسلمت لها فأصبح قول الحية حقا عندها دون قول الله وصارت الحية لها إلها بدل الله . وإنك لتجد حتى الآن إن كثيرين مستعدون لقبول كذب الشيطان ورفض حق الله . فنغلق آذاننا عن سماع أى صوت يغرينا بالشك فى كلام الله ولنقل مع أيوب « هوذا يقتلنى فلا أفعل شيئاً »

● - إن الشيطان لكى يدفعنا إلى السقوط يزعزع ثقتنا فى محبة الله . وهذا واضح من قول الحية لحواء « بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر » ولسان حاله يقول « إن الله لكراهته لكما منع عنكما الخير . إن فى هذه الشجرة قوة عظيمة تنشىء الألوهية لمن يتناول منها . وإذا أكلتما منها اليوم تصيران إلهين . لن تموتا كما قال لكما الله بل تعظمان إلى الأبد كما أقول لكما أنا . وحيث يعلم الله أن هذه

الشجرة كما أوضحت لكما فقد أكثر التشديد عليكما لكى لا تمساها » وبهذا المعنى زعزع ثقة حواء فى محبة الله لهما وأصبحت تتقبل كلام العدو كأنه كلام صديق ، ومن ثم انهزمت أمامه .

يميل الإنسان دائما لأن يلقى اللوم على الله فى كل ظروف حياته . ففى أى حال يريد أن يعتبر أن الله مصدر البلايا لا مصدر النعم . وأى تجربة تصادف الإنسان يحاول الشيطان أن يقنعه بها أن الله لا يحبه ولو أحبه لما جربه . أو لم يرسل على لسان امرأة أيوب له كما أرسل على لسان الحية مثل هذا الكلام حيث قالت له « أنت متمسك بعد بكمالك . بارك الله ومت » فكانت تريد أن تبعد عنه الاعتقاد بمحبة الله ولكنه كان راسخاً فى الإيمان فلم يشك ولم يرتب .

وحواء التى سلمت للشيطان بأن الله منعهما عن الأكل من هذه الشجرة كراهة فيهما كان يمكنها أن ترد عليه وتصده لو كانت متمسكة بحق الله . كان يمكنها أن تلقى إليه هذا السؤال « كيف يمكن ما أسمعه منك . ومن أين ظهر لك أن فى هذه الشجرة قوة تهب الألوهية هل أكلت منها . وإن كنت أكلت منها فلماذا لا اراك إلها . وإن كنت لم تأكل فلماذا تقدم شهادة عما لم تعرف . خذ كل منها وصر إلهاً وإذا رأيتك كذلك أتناول أنا أيضا منها . لو كان هناك خير لما حرمت نفسك منه لتهبه لغيرك » .

« أبعد عنى أيها الشيطان . أنا واثقة بمحبة الله لى . ولى ثقة تامة فى صلاحه وجوده ولا يمكن أن يمنع عنى شيئا فيه خير لى . لو كان فى ثمر تلك الشجرة خير لما منعه عنى ، وفى تحريم الأكل منه دليل على أنه يرى فيه ضرراً . فإذا لا أشك فى محبة الله وبالتالى لا أشك فى صدقه . أما أنت فمنافق لا تقصد سوى إبعاد قلبى عن مصدر الجود والحق . إذهب عنى ياشيطان » .

لو قالت حواء للشيطان هذا الكلام لانهزم أمامها وصار مقهوراً . ولكنها سمعت قوله وهى متغيظة من الله لمنعهما عن الأكل من الشجرة فلم تفكر فى كيف ترد كلام العدو فجرها ذلك إلى السقوط والهوان لم تجب بهذا الكلام فضعفت ثقتها فى محبة الله وتزعزع يقينها فى صدقه تعالى وبذلك خابت آمالها ومن ذلك الوقت أخذت ثقتها فى أقواله تعالى تتناقض وبالتالى ضعفت ثقتها فى محبته لها .

أما نحن فإذا حاول الشيطان أن يجعلنا نشك فى كلام الله وينزع منه الإيمان بمحبته لنا فأمامنا البرهان الأكيد على محبته وهو تسليم ابنه الحبيب للموت لأجلنا فإذا جاءنا الشيطان يقول لنا فى أى أمر من الأمور « أحقاً قال الله » نصرخ فى وجهه حالا قائلين « الذى لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين كيف لا يهبنا معه كل شىء » .

١٢ – حيل الشيطان

يختار الشيطان الضعيف لمحاربة القوى ، واصطياده بشرك أمياله . فهو لم يذهب إلى آدم مباشرة لمحاربته بل إلى حواء لعلمه بضعفها أكثر من آدم ، ولعلمه أنه إذا أسقط هذه الضعيفة تمكن بها من أن يسقط القوى ، فلا تغتر بضعف إنسان ولا تسمع كلماته الشريرة ظناً منك أنه ضعيف لا قيمة لكلامه إذ كثيراً ما يسقط القوى بخداع الضعيف . ألم يفشل سيسرا الملك بخداع باعيل امرأة حابر القينى .

كما يلزمك أن تعلم أن الشيطان أسقط أبوينا لأنه قدم لهما ما يشتهيا به ، فهو يغريك بالخطيئة التى يعرف أنك تميل اليها . فللطماع يقدم محبة المال ، ولمحب الشهوات يقدم كل ما يعرف أنه به ينال بغيته . واعلم أن فيك ميلا معنويا ورغبة تنزع إلى الشر فهو من هذه الناحية يخدعك ، فدائماً قاوم أميالك الردية ولا تسع وراءها ، وكلما رأيت فى نفسك ميلا قويا للشر ازددت هرباً منه .

إن حواء لم تصغ جيداً للحية إلا حينما سمعت قولها « تصيران كالله » وهذه كانت بغيتها أن تعظم عما هى عليه . فحينما تسمع صوتا يغريك بما تحب من الشر فلا تمل بأذنك إليه

بل اهرب منه حالا واسمع قول الرسول « هاربين من الفساد » لأنك إن لم تهـــرب وانقدت لأميــالك كان نصيبك ما أصـــاب أبويك الأولين .

١٣ - الشيطان يزين الخطية

إن الشيطان يزين الخطية بجمالها ويخفى شناعتها ، فقد بين أولا لحواء فائدة أكلهما من الشجرة « إنهما يصيران إلهين » . ثم أخفى الخطر المحدق بهما فقال « لن تموتا » . هكذا يفعل العدو مع كل واحد فإنه يجعله يظن أن فى الخطية مسرة ويخفى عنه الشقاء الذى تنتجه . فلا تنخدع بهذه الغواية . إذ لو كان فى الخطية سرور لكان الشيطان الذى يجلبها سعيداً لكنه يعلم وانتم تعلمون أن خطية واحدة أنزلته من درجته وأسقطته إلى الهوان . فهو يروم أن يحسن الخطية للبشر ليشتركوا معه فى مصابه .

لو كانت الخطية تجلب السرور لكان الاثمة والأشرار يتمتعون بها ، ولكن الواقع والاختبار يعلماننا أنه ما أشقى الخطاة وما أتعس حياتهم . يفرحون بالخطية قبل أرتكابها ، ويتذوقون الألم المرير بعد سقوطهم فيها .

أن أمنون بن داود كان مولعاً بأخته ولعاً زائداً ولكنه بعد أن قضى رغبته الفاسدة مقت أخته مقتا شديداً ولم يطق أن يراها بل طردها من أمامه . هذه هى حقيقة كل خاطىء ، فإنك بقدر ما تراه هائما بالخطية قبل أن يمارسها تراه إياها ماقتاً لها بعد الوقوع فى حبائلها . فلا نغتر بصورة الخطية التى يرسمها أمامنا الشيطان فإنه يخفى تحت جمالها المزيف قبحا زائداً وشناعة تامة . ولنتذكر حين يعرضها علينا قوله تعالى « أجرة الخطية موت » فنهرب منها وننجو من شرها فنعيش سعداء .

١٤ - لماذا يسمح الله بتجربتنا

هنا يعترض البعض : بما أن الله يعرف فينا الضعيف فلماذا يسمح للشيطان بتجربتنا ؟ قال أحد الأفاضل « إن محاربة الشياطين للناس صادرة عن خبثهم ، وبحسدهم يحاولون منع نجاح البشر ، وبكبريائهم ينتحلون لأنفسهم شبه السلطان الألهى فيوكلون بمحاربة البشر خدماً مخصوصين كما يخدم الملائكة الله فى وظائف مخصوصة لخلاص البشر ، وترتيب هذه المحاربة صادر عن الله الذى يعرف أن يستخدم الشرور على طريقة منتظمة ويسوقها إلى الخير فيعود إلى مجد المختبرين ورفعتهم إذ يعقد لهم أكليل الظفر لثباتهم ضد حرب العدو وتمسكهم بالأمانة لملكهم .

ولكن لا يظن أن الله يترك الشيطان يجرب الناس كلما شاء وكيفما أراد بل يوقفه عند الحد الذى تقتضى حكمته عدم مجاوزته حرصا على النفوس من أن يصيبها الفشل . وقد وضع الله للشيطان حداً فى محاربة أيوب فقال له « ولكن إليه لا تمد يدك »

وقد وعد الله بمساعدتنا فى رحبنا مع الشيطان وهو يهب نعمة للمجاهدين حتى يصح القول مع اليشع « لأن الذين معنا أكثر من الذين معهم » (مل ٦ : ١٦) .

فتجارب أبليس إذاً لا تضرنا إلا إذا شئنا نحن أن تضرنا لأن الرسول يقول « قاوموا إبليس فيهرب منكم » فلم يقصد الله بسماحه للشيطان بمحاربتنا إلا أن نزداد قوة فنلتجىء إليه ونتمسك به وهو يقوينا لنغلب . وكثيرون هم الذين تسلحوا بسلاح الله الكامل وغلبوا . ولسان حالهم يقول « الرب معينى وناصرى ممن أخاف . الرب عاضد حياتى فمن أجزع »

معلوم أنه كلما شعر الإنسان ببأس عدوه وسلطانه ، تحفظ واحترس . فيلزم أن نزداد احتفاظاً ويقظة كلما سمعنا أن عدونا كأسد مفترس . والجندى الأمين لا ينام بل يسهر راداً هجمات العدو من أى جهة جاء . لا يكل ولا يفشل بل يظل ثابتا حتى يستحق أخيراً إكليل الغلبة . و« طوبى للرجل الذى يحتمل التجربة

لأنه إذا تزكى ينال أكليل المجد الذى وعد به الله الذين يحبونه وقال الرسول بولس لتلميذه تيموثاوس « اشترك أنت فى أحتمال المشقات كجندى صالح ليسوع » ٢ تى ٢ : ٣ .

أما إذا تراخى الإنسان ولم يقاوم المحارب وترك نفسه فريسة ولم يستمد المعونة من السماء فلا لوم على العناية الإلهية لأنها مع كونها سمحت للشيطان أن يجرب إلا أنها أعدت السلاح للغلبة . فالذى يلقى سلاحه وينهزم لا يرجع باللوم إلا على نفسه فلا تقل إننا ضعفاء ولماذا نجرب . لأن الله القوى يستطيع أن يرفعنا فوق تجاربنا إذا تمسكنا به . والرسول يقول « لأنى حينما أنا ضعيف فحينئذ أنا قوى » فهو ضعيف من ناحية وقوى من ناحية أخرى . ضعيف من جهة نفسه ولكنه قوى بالرب .

فالذى يجــرب لا يقل إنى أجرب من قبــل الله « لأن الله غيــر مجرب بالشـــرور بل كل واحد يجرب إذا انجذب وانخدع من شهــوته » .

١٥ - خلق الله الإنسان من تراب الأرض

إن معنى آدم « تراب أحمر » لأنه منه جبل . فلم يقل الكتاب إن الله جبل الإنسان من ذهب أو ماس بل من التراب الذى لا قيمة له ، وبه يشتغل ويعمل ومنه يحصل على أسباب المعاش . قال أحدهم « ليفتخر الجهال بعد هذا النبأ بفضل طبيعتهم » . قد عرفنا من علم الكيمياء أن العناصر التى ركبت منها الصخور والأتربة والمياه والمعادن هى عينها التى ركب منها لحم الإنسان وعظامه ودمه وكل جسده . وجاء فى سفر أيوب « أنا أيضاً من الطين تقرصت » (أى ٣٤ : ٦) وقال ابراهيم « هوذا قد شرعت أكلم المولى وأنا تراب ورماد » (تك ١٨ : ٢٧) وجاء فى الجامعة « فيرجع التراب إلى الأرض كما كان » (جا ١٢ : ٧) وفى أيوب أيضاً « أذكر أنك جبلتى كالطين أفتعيدنى إلى التراب » (أى ١٠ : ٩) وقال بولس الرسول « الإنسان الأول من الأرض ترابى » (١ كو ١٥ : ٤٧) فما أدنى أصل الإنسان ، وما

أكثر أسباب إتضاعه أمام الله ، وما أسرع زواله . ومن هنا نتعلم أمرين :

أولا - الحذر من خطية الكبرياء . إن أول خطية دخلت إلى العالم هى خطية الكبرياء ، وأول شىء دفع الإنسان للسقوط العظمة . رغب آدم وحواء أن يكونا إلهين ولم يذكر أن الله الذى يريد أن يكونا مثله جبلهما من تراب الأرض . ولكنهما أرادا أن يكونا كهذا الإله . منحهما الله النعمة فظنا أن هذه النعمة لهما ولم يتذكر أنها موهوبة من خالقهما ، وبذلك تكبرا . ومعظم أسباب الكبرياء أن المتكبر لا يذكر أن ما يفتخر به هو عطية من الله .

نظر آدم وحواء إلى ما منحهما الله من نعم ، وما حباهما من بركات فاختالا . نظرا الشمس والقمر وكافة الكواكب مسخرة لخدمتهما ووجدا عناصر الطبيعة جميعها خاضعة لراحتهما . تأملا حولهما وإذا بهما قد امتلاء مجداً وبهاء فداخلهما العجب وقالا فى نفسيهما : هذا المجد لنا . هذا المجد هو من ذاتنا لا من آخر : نحن نملك الخليقة وهى عبده لنا وليس لها ملك غيرنا . ومن ثم نسيا الله وتاها عن معرفته . قال لهما الشيطان « بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله » تك ٣ : ٥ .

سبق الله وصنع الإنسان من تراب الأرض وأعلمه ذلك ليكون التواضع أمامه دائما حتى إذا جاء العدو ليغريه بالعظمة يذكر أنه جبل من تراب فيتواضع . ولكن آدم لم يذكر أصله وأراد أن يخطف مقاما ليس له . نعم لأجلك صنعت الخليقة ولكن أنت لم تصنعها . أهمل الإنسان ذكر كل ذلك وراح يطلب الألوهية ليشابه خالقه وباريه .

فيالها من حماقة هوى اليها الإنسان الأول ، ولكنها لا تزال تجذب إليها كثيرين ممن تناسلوا من ذلك الإنسان . كم من أشخاص يرفعون أنفسهم فوق ما ينبغي ويريدون من الناس أن يكرموهم كآلهة . إذا منحوا مزية من الله افتخروا بها كأنها منهم . كما افتخر آدم بالخلقة كأنه سيدها . إذا كانوا أصحاب غنى أو جاه أو صحة أو علم افتخروا بهذه وتكبروا ولم يعلموا أن مصدر هذه الهبات والعطايا هو الله وحده .

فالمفروض على الإنسان الذى نال النعمة من الله أن يشكره عليها عوض التكبر بها ، لأن الشكر يزيد الإنسان بركة بينما الكبرياء تذهب بها . فكما زالت النعمة عن آدم لما تكبر ولم يشكر عليها ، هكذا تزول عن كل إنسان يسلك مثله . إن نبوخذ نصر ملك بابل قال « اليست هذه بابل العظيمة التى بنيتها لبيت الملك بقوة

اقتدارى ولجلال مجدى » فلما قال هذا مفتخراً ولم ينطق به شاكراً المولى العالى الذى أعطاه يقول الكتاب « والكلمة بعد فى فم الملك وقع صوت من السماء قائلا لك يقولون يانبوخذ نصر الملك إن الملك قد زال عنك » (دا ٤ : ٣٠ و ٣١) .

فلنحذر الكبرياء لأنها خطية الخطايا . أو بالحرى هى الينبوع النجس الذى تستمد منه كل الخطايا حياتها . ويكفى بيانا لشرورها أنها هى التى أسقطت الشيطان من رتبة الملائكة كما قال الرسول بولس « لئلا يتصلف فيسقط فى دينونه إبليس » (١ تى ٣ : ٦) مثبتاً أن خطيئة إبليس التى أسقطته الكبرياء ، وهى التى أسقطت آدم وحواء وجلبت الشقاء على الجنس البشرى . قال أحد الأفاضل آه من داء الكبرياء الملعون . آه من خطية العجرفة الجالبة المنون . ليت شعرى أى أسم أشهر به شرك ورذيلتك . بأى شيء من الأشياء أكنيك وألقبك . بأى ألفاظ أحصر حدك وتعريفك . لكى يتضح ويبان للعالم عظم الابادة والاضمحلال ووفور التلاشى والاستئصال الذى تجلبينه على النفوس.لعمرى أن سميتك صاعقة حادة فلست أزل لأنك أنت رشقت كوكب الصبح فهوى من السماء كمثل البرق وأهبطته إلى الأرض بمنزلة القلاع . إن دعوتك سيفا ذا حدين حاسم النفوس، فلعمرى إنى لست افترى

عليك . لأنك أنت حصدت أثمار البقاء وعدم الموت من الجدين الأولين ، أعنى بهما آدم وحواء الشقيين المنكودى الحظ . إن سميتك أفعى كثيرة الرؤوس ، لعمرى أنى لست أكذب لأنك أنت هى مبدأ كل خطية وإثم وأم كل نفاق وكفر . فآه من داء الكبرياء المميت . ياسليلة أبليس . يا ابنة الشيطان المحتال . يا أم الخطية الملكة . يامعلمة السقم النفسانى . كيف يمكن أن تنقى وتقلعى » .

حقاً نجد أننا إذا كنا نشكو بلاء أو شقاء أو هماً أو غماً فلنبحث جيدا نجد أن مصدر كل هذه الأتعاب خطية الكبرياء . تصور أباك الأول آدم فى جنة عدن رافلا فى حلل السعادة حاصلا على كل أسباب المسرات كملك عظيم يحكم مملكة خاضعة طائلة إلا أنه حينما جاءت الكبرياء ودخلت إلى تلك الجنة طردت منها السعادة وابعدت السلام . حينما وسوست فى إذن حواء قائلة « تكونان إلهين » وحينما قبلت حواء هذا الكلام مدفوعة بالميل للتعالى ، سطا الشقاء وعقد تاجه ملكاً على الجنس البشرى فجلب على الإنسان الموت وعراه من اللباس البهى وأصبح طريد الشقاء حليف الآلام .

ثانيا — خلق الإنسان من تراب الأرض حتى يعرف أنه تراب وإلى التراب يعود . حينما أخطأ الإنسان قال له الله « إنك تراب وإلى تراب تعود » . وهذا التعليل يدل على أن الموت كان من أحوال

الإنسان الأصلية وأن الخلود من أحواله الروحية والبرهان الذى أقامه العلماء على خلود النفس يلزم موت الجسد فأنهم قالوا إن الموت هو انحلال المركب وانقسامه إلى أجزائه . ولكن النفس جوهر بسيط فلا تنحل ولا تنقسم . وكان جسد آدم مركباً من أجزاء التراب المختلفة فكان قابلا للأنحلال والأنقسام . وكان لأبوينا الأولين أن يخلدا فى الجنة على سبيل المنحة الإلهية لا البنية الطبيعية ، كما دل على ذلك وجود شجرة الحياة الرمزية ولكنهما فقد تلك المنحة بالمعصية . وكان عرق الجبين مؤذنا بذلك لأنه من صنوف الأنحلال .

فالإنسان خسر بمعصيته هبه عدم الموت وأصبح محكوماً عليه بالموت لابد أن يذوق كأسه المـــرة « وضع للناس أن يموتـوا مرة » (عب ٩ : ٢٧) « أى إنسان يحيا ولا يرى الموت . أى ينجى نفسه من يد الهاوية » (مز ٨٩ : ٤٨) .

فاعتبر أيها الإنسان أن حياتك على الأرض لمدة قصيرة ولأجل محدود « لأنك تراب وإلى تراب تعود » .

فمن التراب خلقت وإلى التراب تعود . وكما كنت قبل أن تخلق ترابا حقيراً . والقدير صنع من هذا التراب جسماً لسكنى الروح التى على صورته ومثاله التى هى أنت ، فبعد الموت سينحل جسمك هذا ويرجع تراباً كما كان .

كم من كثيرين يهتمون بأجسادهم أكثر من أرواحهم . ينعمونها ويرفهونها ويوجهون اليها كل عناية بينما يتركون أرواحهم مهملة لا

يبالون بها . مع أنهم لو أعطى لهم أن يروا صورة هذا الجسد بعد موته لرأوا منظرا تقشعر منه الأبدان ، لرأوا جيفة تنبعث منها الروائح الكريهة . لرأوا هذا الوجه الصبوح الجميل قد تشوه وأصبح منظره مخيفاً . هوذا العين الصافية قد أغلقت . والأنف الجميل قد سقط ، والفم الصغير قد أغلق . واللسان الفصيح قد خرس ، والقوام البديع قد صار إلى حال لا يرضاها أحد لنفسه .

هذا هو الجسد الذى تزينه الآن ونعنى به العناية التامة . فهو مخلوق للزوال . من التراب أخذ . وإلى التراب يعود كما كان . فلم يجبل الله الطين ويصيره جسداً ميتاً ثم نفخ فيه الحياة بل أنه نفخ فى أنفه نسمة حياة خلقه . فالجسد فى نفسه ليس فيه حياة بل هو مسكن أو بيت لسكنى الروح مدة وجودها على الأرض . وحين يأذن الله بانتقال هذه الروح من هذا العالم يهدم هذا البيت وتتركه الروح فيصير إلى العدم كأنه لم يكن .

فأعتبر أيها الإنسان وتأمل فى تراب الأرض الذى تدوسه بقدميك وايقن أن هذا التراب قد كان اجساد ناعمة لأناس قبلك . وقد انحلت تلك الأجساد وأصبحت تراباً يداس بالاقدام . هكذا ستصير أنت أيضاً ترابا كسابقيك . وما أصدق قول الشاعر :

خفف الوطء فما أظن اديم

الأرض إلا من هذه الأجساد

أيها المتكبر لا تختال بجمالك وحسن صورتك ، ولا تمشى متعجرفاً على الأرض فلو تبينت لوجدت أن التراب الذى تمشى عليه مؤلف من أجساد اناس ماتوا قبلك كما سيتألف من جسمك تراب آخر يمشى عليه آخرون غيرك وهكذا .

فينبغى لنا إذاً أن نهتم بمصير أرواحنا أكثر من اهتمامنا بمصير أجسادنا : لأننا مهما اجتهدنا فى خدمة اجسادنا فلا يمكننا أن نمنعها أو نحفظها من الفناء والزوال . إن هيردوس الملك لما تعالى وانتفخ سلط الله عليه الدود فصار يأكل الدود جسده وهو حتى مات (أع ١٢ : ٢٣) .وذلك لأنه كان متباهياً بجسده فأراد الله أن يريه مصير جسده قبل أن يموت ويرى الصورة التى سيصير اليها بعد فنائه فماذا رأى ؟ فساداً ونتانه وعرف أنه كان يفتخر بالفانى المضمحل .

قال الجامعة « فيرجع التراب إلى الأرض كما كان وترجع الروح إلى الله الذى اعطاها » (جا ١٢ : ٧) فبعد الموت يصير الجسد إلى الفساد وتصير الروح إلى الخلود . فبأيهما تهتم ؟ إذا كنت تعنى بالجسد الذى لا يحيا إلا مدة وجودك على الأرض . فبالأولى تعنى بالروح التى تحيا هنا وتحيا إلى الأبد بعد الموت .

١٦ – المرأة نعمة أو نقمة

لقد خلقت المرأة لآدم معينة له . ولقد أحس هو بالحاجة اليها عندما أمعن النظر فى كل أجناس الحيوانات ، وفى صفاتها وخواصها فظهرت له وحدته ووحشته إذ لم تكن الحيوانات تتكلم أو تشاركه فى أفكاره ولذاته واشتياقاته ومحبة الله خالقه الكريم . إنه رأى فى كل الحيوانات ذكراً وأنثى لم ير له معينا نظيره . وربما وجد بينهما ما صاحبه وخدمه ورباه ولكن تلك البهائم مهما خدمته لا تنفعه المنفعة المطلوبة منفعة الأنس .

فخلقت حواء لآدم معينة وقد خلقت من الرجل حسب مسرة الله لا لأنه تعالى كان محتاجاً إلى مادة يخلق منها بل ليظهر بذلك حقيقة أن الرجل والمرأة جسد واحد . وقيل أن المرأة لم تؤخذ من رأس الإنسان لتفوقه شرفا ، ولا من رجله ليدوسها ، بل من جنبه وقوامه لتكون معادلة به ، ومن قرب قلبه ليحبها ويكرمها . وهكذا خسر آدم ضلعة واحدة ولكن الله عوضه أكثر مما خسر إذ أخذ الخالق ضلعته وقدمها له زوجة ولهذا قال آدم « هذه تدعى إمرأة لأنها من أمرىء أخذت » .

والإنسان فى العبرانية (ايش) والمرأة (أيشه) ومعنى (ايش) كائن عاقل فظهر أن آدم الإنسان وحده هو المخلوق العاقل ذو النطق والوجدان وأن المرأة ما خلقت إلا لتحمل عبء الحياة مع الإنسان . لهذا قال الله « يترك الرجل اباه وأمه ويلتصق بامرأته » . وليس المعنى أن الإبن المتزوج معفى من كل ما عليه من واجبات لوالديه بل يعني أنه لا ينبغى أن يترك امرأته . وفى هذا القول اشارة إلى التزوج بواحدة « يلتصق بأمرأته » وليس بأثنين .

ولكن مما يؤسف له أن المرأة انحرفت عن الغاية التى خلقت لها . فهى فى إمكانها أن تكون بركة أو لعنة ، وما صنعته حواء من غواية زوجها واستخدام الشيطان لها يدلنا على أنه كثيراً ما تكون النساء أشراكاً لأزواجهن . فلم يذهب الشيطان مباشرة لغواية آدم بل قصد حواء . وهكذا كثيراً ما يجعل المرأة سببا لسقوط زوجها ولهذا يتحتم على من يختار له شريكة حياة أن ينشد فيها الفضيلة والقداسة لكى تكون له معينة حقاً .

قد يقال هكذا كانت حواء لأنها أعطيت من الله ويقول الكتاب « أما الزوجة المتقية فهى من الرب » فنجيب أن نفس هذا الكلام قاله آدم حينما سئل عن ذنبه لأنه قال لله (المرأة التى جعلها

معى هى اعطتنى من الشــجرة فأكلت) ولكــن فى هـــذا الكلام ما يدل على أن آدم يشـــعر بما كان عليه من التكليف والمسئولية وما عليه من الواجبـــات لمن خلقت له معينـــاً وأنه كان يجب عليه أن يحرســـها ولا يساعدها على التجربة . قد خلق الرجل رأس المرأة فيجب عليه أن يردها إلى الصــــواب إذا انحرفت ولكن آدم أطاع وســلم لحواء . وهذا وجه الخطأ منه ، فكان يجب أن ينصـحها بترك الخطأ .

فليس اختيار امرأة فاضلة معناه التسليم لها فى كل شىء لأن حرية الاختيار التى خلقها الله فى الإنسان تجعله قادراً أن يسلم نفسه للخطأ . وهكذا سلمت حواء نفسها للخطأ واستطاعت أن تجذب زوجها اليه .

إلا أنه من كل الوجوه توجد الامرأة الفاضلة معينة حقا ، بعكس اللواتى ينظر اليهم فى جمالهن وشكلهن فقط بغض النظر عن الفضيلة ... وخير مثال لذلك اخاب ملك اسرائيل الذى انتخب لنفسه زوجة إيزابل الجميلة الشريرة التى بسوء اشارتها جلبت لنفسها ولزوجها الهلاك المريع .

قال الحكيم « امرأة فاضلة من يجدها لأن ثمنها يفوق اللآلى وكل الكنوز لا تساويها » فيالها من مصيبة عظيمة إذا كان الإنسان لا يبحث عن الفضيلة فى المرأة بل يبحث عن جمالها وغناها كما هو الشأن فى هذه الأيام . فكم من الوف من بنات حواء الآن لهن قدرة على اجتذاب ازواجهن إلى الضلال . وكم من رجال هلكوا بغواية نسائهم فاختر فى شريكة حياتك قبل كل شىء فضيلتها وصلاحها . فالسعادة العائلية لا تتوفر إلا لرجل وفق إلى زوجة فاضلة بعكس من يهمهم الجمال والمادة ، فإن هذين كثيراً ما يجلبان معهما الويل والشقاء . قال نابليون « المرأة الجميلة تسر العين وأما المرأة الفاضلة فهى تسر القلب » .

١٧ - الله يدين على الخطية

لماذا يكره الله الخطية ؟ لأنه « قدوس » فقداسته هى التى تمقت الشر وتكره الساقطين فيه . لهذا لم يكد آدم يسقط حتى نظر خالقه نظرة الغضب بعد الرضا ، لقد كان قبلا جميلا بالقداسة والطاعة ولكن الخطية شوهته فى نظر الله تعالى فأسرع اليه يدينه سائلا إياه « أين أنت ؟ » .

« أين أنت » ؟ الاستفهام هنا للتوبيخ ولحمل المسئول على الإقرار عن علة ما أتاه ، لا لطلب الفهم لأن الله عرف أين كان آدم ووجه الصوت إلى مخبئه . فكأنه تعالى يقول له يا آدم قل لى لماذا هربت منى بعد أن كنت تسرع إلىّ مسروراً بلقائى ، فأين كنت وإلى أين هربت ؟ ..

قال القديس يوحنا ذهبى الفم « إن مفاد قول الله لآدم أين أنت . اعنى أين أنت الآن مما كنت فيه بالأمس ؟ أين مجدك وبهاؤك ؟ أين عزك وجلالك ؟ أين أنت ولماذا تختفى من أمامى ، وما الذى جعلك هكذا خائفاً مرعوبا » ؟

فليعتبر كل خاطىء وليعلم أن الله يدين على الخطية ، وعدله يتطلب عقاب الخاطىء عقاباً شديداً .

١٨ - عار الشعوب الخطية

ينبغى أن نتأمل فيما ناله آدم من مواعيد الحية الكاذبة إن الله قد رتب أن يحصل الإنسان بواسطة السقوط على قوة يميز بها بين الخير والشر إذ لم تكن له قبل السقوط . فهو لم يكن له علم بالشر لأنه خلق طاهراً وكانت أول ثمرة اجتناها آدم من التمييز الذى حصل عليه بسقوطه أنه جعله يختبىء ويختفى جبناً وخوفاً .

لقد قال الشيطان للحية « تصيران كالله عارفين الخير والشر » ولكن ياله من محتال . نعم يعرفان الخير ولا يستطيعان عمله ويعرفان الشر ولا يمكنهما الابتعاد عنه . أن طمعهما فى الارتقاع الموهوم افقدهما الرفعة الحقة ، وهكذا سقطا وأصبحا فى جبن يزعجهم أقل صوت ويوبخهم الضمير وهما تحت سلطة الشيطان .

نعم . انفتحت أعينهما ولكن لم يريا سوى عريهما وخزيهما وما وصلا اليه من التعاسة والعار . فلم يكشف لهما نور جديد أو بهاء سماوى بل كشف لهما وخزيهما ..

يخبرنا الكتاب الإلهى أن آدم وحواء قبل السقوط « كان كلاهما عريانين آدم وامرأته وهما لا يخجلان » تك ٢ : ٢٥ وفى هذا القول وصف للبر الأصلى والبساطة التى هى كبساطة الأطفال . وهذا بالطبع من خواص الذين لم يعرفوا خيراً ولا شراً . أن الخجل ثمر الشعور بالخطيئة فلو لم يشعرا بالخطأ لما خجلا من عريهما ، وعلى هذا قال بعضهم « الثياب دليل على خطيتنا وشعار لخجلنا وعارنا فمن يفتخر بثيابه فهو كالمتسول يفتخر بخرقه البالية ، وكاللص يفتخر بقيده فى السجن . وكما أن السارق يتذكر بقيوده سرقته هكذا يجب علينا كلما لبسنا ثيابنا أن نذكر خطايانا » .

أن آدم وامرأته شعرا بعريهما فى أول سقوطهما بتعديهما وحينئذ بدأ يعرفان الخجل . كان آدم قبل الخطية لا يعرف للخجل معنى ، لأنه لا يجلب الخجل سوى الشر . فلما عرف الشر عرف الخجل . ونفس الإنسان تصبح حقيرة فى عينيه إذا ألفى نفسه يخطىء . فآدم وحواء يعلمانا أن الخجل يدخل مع الخطيه وحيثما تكون الخطيئة تصحب معها العار والخزى .

ولا تدخل الخطية الخجل فقط بل الخوف ايضاً : فإن آدم لم يكد يسمع خطوات الرب ماشيا فى الفردوس حتى اختبأ وراء الاشجار . لقد كان آدم متعودا رؤية الله بدون خوف أما الآن فلم

يقو على مقابلته . الخطيئة هى التى اخافته ، الشر هو الذى ازعجه فقد كان آدم قبلا يستطيع أن يتطلع إلى وجه الله بغبطة لأن وجهه تعالى كان يفيض ابتساماً ومسرة به . وأما الآن وقد علا وجهه الغضب بسبب خطيئة آدم فهل يستطيع الإنسان أن يرفع عينيه فى وجه الله ؟

حقاً من هذا نستطيع أن نفهم قوة الآية القائلة بأن الخطاة فى يوم الدينونة سيقولون للجبال اسقطى علينا وللآكام غطينا من وجه الجالس على العرش .

قال الرسول بولس « مخيف هو الوقوع فى يدى الله الحى » فتعرف أنه لا شىء يخجل ويخيف مثل وقوفنا أما عرش دينونته تعالى « أخيراً والخطيئة تحيط بنا كجلباب . حينئذ يتم القول « ارفع أذيالك إلى فوقك وأرى الأمم خزيك » فأولى بنا أن نتبع قوله تعالى « أشير عليك أن تشترى منى ذهباً مصفى بالنار كى تستغنى . وثيابا بيضا لكى تلبس فلا يظهر خزى عريتك . وكحّل عينيك بكحل لكى تبصر » (رؤ ٣ : ١٨) .

١٩ - محاولة الإنسان اصلاح نفسه

إن إصلاح خطأ النفس أمر خاص بالله خالقها فباطلا يسعى الإنسان ليصلح فسادها . إن الآلة التى يصنعها صانع لا يمكن لصانع آخر من غير حرفته أن يصلحها . والنفس صنُع الله فلا يمكن لغيره تعالى أن يعيدها إلى حالها الأولى إذ أفسدت .

ولكن فى الإنسان ميل إلى السعى لإصلاح نفسه بذاته دون أن يطلب من منشئها أن يتولى هو بنفسه ذلك . وهذا العيب ورثناه عن جدنا الأول حيث بدأ حال سقوطه أن يخيط أوراق التين واتزر بها ليستر عورته .

إن الخطيئة عرته فأراد أن يستر نفسه بأوراق التين مع أنه لا يمكن ليد أن تتلافى ما أحدثته الخطيئة إلا يد الله وحده . فالإنسان حالما شعر بعريه أراد أن يستر نفسه . وهكذا كل خاطىء يشعر بخطاياه يسعى محاولا أن يستريح منها . ومن هذا يظهر الفرق بين الديانة المسيحية وباقى الأديان . فالمسيحية حالما يشعر الخاطىء بعريه ويطلب الله للتوبة ، تقدم له أولا الحلة الملوكية الأولى ليلبسها . أما بقية الأديان فتطلب منه أن ينسج هو لباسه ليســـتر عريه .

ثم نلاحظ أن آدم أراد بصنع أوراق التين لباساً أن يوجد مستوراً أمام من يراه مع أنه مازال شاعراً بأنه عريان ، فهو يريد أن يظهر بالمظهر اللائق بغض النظر عما إذا كان هو مستريحا إلى ذلك أم غير مستريح وهذا عيب الكثيرين منا حينما يخطئون فإنهم يحاولون قبل كل شيء إن يخفوا خطيئتهم عن عيون الناس حتى لا يشعروا بها ويحتقروهم لأجلها . فهم يخشون جانب الناس ولا يخشون جانب الله مع أنهم لايستطيعون أن يخفوا عنه خطاياهم .

أراد آدم أن يخفى عريه وهو شاعر بأنه عريان ، بدليل أنه لما سمع صوت الله ماشيا فى الجنة اختبأ . ولو كان يعلم أن أوراق التين تكفى لستره لما اختفى . ولكنه خاطها ليخدر بها ضميره الهائج ويتخذ منه سبباً لأسكاته حتى إذا هاج عليه وأفهمه أنه أخطأ لذلك تعرى ، يجيبه ها قد صنعت لنفسى أوراق من تين وسترت نفسى بها .

هذا ما يفعله الكثيرون فإنهم إذ يخطئون يختبئون عن عيون الناس وإذا حدثهم ضميرهم بعنف عن خطاياهم يحسبون بأن أحداً من الناس لم يرهم ، وبهذه الطريقة يهدئون روع أنفسهم .

ونحن إذا كانت أوراق التين لم تنفع آدم حينما واجه الحقيقة وحينما سمع صوت الله ماشياً ، هكذا اختباؤنا عن الناس لا ينفعنا يوم نحس بدنو الأجل ويوم نقف أمام عرش الله .

إنه لمجرد سماع آدم صوت الرب فى الجنة « خاف » وسبب ذلك كما اعترف هو نفسه أنه « كان عرياناً » وقد شعر أنه عريان مع أنه كان مئتزرا بأوراق التين . ومن هنا يتضح أن تلك المأزرة لم تكن لتنفع ضميره ، لولا وخز وتأنيب الضمير لما خاف . ومادام الضمير لا يرتاح فلا تجدى كل الوسائل التى يحاول الإنسان أن يستخدمها لإخفاء عيبه . فهو قد أعلن لآدم أن مأزرته ليست بكافية لستره أمام وجه الله وجعله يخاف . وهكذا يعلن الله لكل خاطىء يستريح إذا لم ير الناس خطاياه إن ذلك لا يكفى لمنع عنه الخوف يوم يواجه بكشف خطاياه الخفية والظاهرة . قال المرتل « يارب قد اختبرتنى وعرفتنى . وأنت عرفت جلوسى وقيامى . فهمت فكرى من بعيد . مسلكى ومربضى ذريت وكل طرقى عرفت لأنه ليس كلمة فى لسانى إلا وأنت يارب عرفتها كلها . من خلف ومن قدام حاصرتنى علىّ يدك . عجيبة هذه المعرفة فوقى . ارتفعت فلا أستطيعها » (مز ١٣٩ : ١ – ٥) .

٢٠ – الإنسان بلا عذر

أنت بلا عذر أيها الإنسان . إنه بمجرد أن أخذ الله يدين الإنسان طفق هذا يلقى التبعة على غيره قائلا « المرأة التى جعلتها معى اعطتنى من الشجرة فأكلت » أو بعبارة أخرى كأنه يقول لله عوضا عن أن تديننى أسألك لماذا أعطيتنى هذه المرأة فهى سبب سقوطى . أو بالحرى اعتبر أن العلة الأولى لسقوطه هى الله نفسه . فياله من عذر واه . لأن الله لم يعط حواء لآدم رغما عنه بل أعطاها له بعد أن شعر بحاجته اليها . فحين سمى الحيوانات باسمائها كان لكل حيوان انثاه « أما هو فلم يجد له معيناً نظيرة » أى اشتاق أن يكون له معين كباقى الحيوانات التى رآها .

أن اختلاق الأعذار يمكن أن ينطلى على عقول الناس ولكن الله لا يدين بناء على ما يسمع من كلام لأن له تعالى القدرة على معرفة ما فى القلوب والصدور . فهو لا يبالى كثيراً بالكلام لأنه غالبا يختلف عما تخفيه النيات فلذلك لم يدن آدم بناء على كلامه بل على نيته . لم يدنه على ظاهره بل على باطنه . على عمله لا على

كلامه . لأنه لم ينـدفع إلى الغواية بإغراء حواء فقط بل يميل منه هو إليها .

قال القديس يوحنا ذهبي الفم « لقد ظن آدم أنه باعتذاره يسلم من القصاص ، ونسي أن الامرأة وإن كانت حسنت له أن يأكل من الشجرة وقد ناولته من ثمرها إلا أن الوصية قد تقدمت فنبهته . فكان يجب عليه أن يتمسـك بكلام خالقه ويترك كل ما سواه . ألم يكن يعلم أنه رأس لحواء وأنها عضو من أعضائه . فكيف جاز له وهو الحاكم أن يصير محكوما ، ويجعل المرؤوس رئيساً ، ويصير الذنب رأسا » .

لقد ألقى آدم المسئولية على الظروف التي وضعه الله فيها لائما الله نفسه . وكم من كثيرين على هذا المنوال ينسبون سقوطهم إلى كل شيء دون أن ينسبوه إلى أنفسهم . فالإنسان يصعب عليه أن يرى نفسه خاطئا فيبرر نفسه بالأعذار الباطلة ، ولا يكفيه أن يبرر نفسه بل يستذنب غيره ايضاً .

أما إذا نظر الإنسان إلى حقيقة نفسه كخاطيء لأستطاع أن يشعر بانحرافه ويصرخ « أنا أخطأت » . وهذا هو لسان حال النفس المتواضعة حقاً . ولو كان آدم فهم حقيقة حاله لكان قد غير لهجته . ولكنه لم يعرف نفسه ولا عرف الله ، لذلك عوضاً عن أن يلوم نفسه لام الله تعالى .

إن أبناء آدم قد ورثوا عنه هذا العيب وتلقوا عنه هذه الطريقة حينما يدانون عن أمورهم الروحية . فإنهم دائما يعتذرون ، ودائما يعتذرون بغيرهم . كم من إنسان يعتذر عن حياة الشر بأن الله لم يعطه القوة ليعيش له . فكأن الله هو الذى منعه عن أن يتوب وهو لو شاء التوبة لوجدها . وكان ينبغى أن يقول بصريح العبارة إنى متعلق بشهواتى فلا أقدر أن أتركها ، دون الالتجاء إلى تلك المراوغة ، لأن هذه لا تنفع يوم الدينونة .

فينبغى لمن يميلون إلى تبرير أنفسهم أن يراعوا مقابلة الله لاعتذار آدم بالحكم عليه . فهو لم يقبل عذره بل أوقع عليه العقاب هكذا قيل فى أمر المدعوين للعشاء فأنهم جميعا اعتذروا ولكن أعذارهم لم تنفعهم فطردوا .

فاحذر أن تكون منساقا إلى الخطيئة اعتماداً على اعتذارات يجهزها لك الشيطان ، واسمع قول بولس الرسول « أنت بلا عذر أيها الإنسان » إن تلك الأعذار التى تعتذر بها هى نظير أوراق التين التى اراد آدم أن يستر نفسه بها . ولكنها لم تستره لأنه وإن ستر جسمه ولكن نياته لا تزال ظاهرة أمام الله . هكذا الأعذار يمكن أن تخدع الناس . ولكن اعلم أن الله لا يرضى إلا بالنيه الحسنة المستقيمة فقط .

٢١ – طرد آدم من الجنة

سقط آدم من النعمة بالخطية ولم يرض بحالة السعادة التى كان فيها رفض الطاعة مع السلام واختار العصيان مع الشقاء . فطرد من الجنة هو وامرأته ولعنت الأرض بسببهما بعد أن حكم عليهما بالشقاء والتعب . فيالها من ساعة مريعة تلك التى كان يخطوا فيها آدم نحو باب الجنة ليخرج منها وهو عالم أنه لا يدخل إلا عالم الهوان والآلام . ويالها من ندامة استحوذت عليه . ولا ريب أنه قال « ياليتنى ثبت فى النعمة . ياليتنى ما اتبعت طريق الغواية . ياليتنى أطعت للأبد » ولكن ندامته لم تكن تنفعه بعد الزلل ولم تكن إلا لتزيده حرقة وتعاسة .

فليتأمل الخاطىء فيما تأمل فيه آدم وهو خارج من الجنة . تأمل آدم وهو مطرود فى مواعيد الشيطان فوجد أن ظاهرها الأمانة وباطنها الخيانة . وهكذا يقول الشيطان دائما لكل انسان « افعل هذا الشر تجد لذة » وكثيرا ما تعمى اللذة عين الإنسان فيدنو منها وحينئذ ينسى الهه وتحذيره إياه من الشر . وبعد أن يذوق اللذة الجسدية ويشعر بمرارتها يفوق من الغفلة ويستيقظ من نوم الغرور ويأخذ فى الندم .

وكثيراً ما يستمر الشيطان يدفع الإنسان إلى الشر ويسوقه إليه ولا يدع له لحظة ينتبه فيها إلا بعد فوات الفرصة . فلينتبه الخاطىء إلى ما يفقده بعمل الشر قبل أن يدنو منه . وليحذر أن يتبع الشيطان معتبراً بما جرى لآدم أبيه .

ليتأمل فى حالة آدم داخل الفردوس وحالته بعد ما أخرج منه . ففى الجنة كان منفرداً بالرياسة على العالم بأسره ، وخارجها صار فقيراً مسكيناً يفلح الأرض . فى الجنة كان يجتنى الاثمار الشهية الورود العطرة الزكية . وخارجها لم يجن غير الشوك والحسك قد كان قبلا متحشاً بالسعادة التامة وبعد ذلك صار الشقاء حليفه والتعب من لوازم حياته .

قال أحد الأدباء « كأنى بآدم حين طرده الله من الجنة وجعله يعيش قريباً منه يقول . يالسعادتى الضائعة . ويالمجدى المفقود . يالطهارتى غير الموجودة . ابكيك واندب عليك . أيها الفردوس الحلو البهيج كم تضطرم فى أحشائى وأنا أراك ولا استطيع الدخول اليك خشية من الحربة النارية التى بيد الملاك حارسك . آه ياالهى كم أنا عديم الشكر وقليل الاعتراف بالجميل لقد رسمت صورتك البهية فىّ أنا الطين القليل الوفاء ولكنى قد شوهت رسمك وبعت سعادتى بلا شىء » .

ولماذا طرد الله آدم ؟

(١) طرده لأنه فقد الأمانة . فقد اصبح الله لا يأمن لآدم أن يسكن الجنة . إن يده التى امتدت للعصيان صار ذلك لها طبعاً .

فلا ريب أنه إذا بقى فى الجنة تمتد يده لتعصى ثانية . إذا كان التوعد الرهيب الذى توعده به أولا لم يردعه ولم يكن قد تعود العصيان ، فكم بالحرى يميل الآن إلى المخالفة وقد تعودها ؟ قال أحد العلماء « إن الذى وضع رجله فى بحر من الدماء لا يستطيع أن يسحبها منه حتى يغرق فيه » .

وكثيرون اولئك الذين قد عوقبوا على خطاياهم شر عقاب ولكنهم بعد مرور وقت عادوا إلى نفس الشر الذى عوقبوا عليه فلم يكن عسيرا على آدم أن يأكل من شجرة الحياة بعد ما أكل من شجرة معرفة الخير والشر . ولهذا قال الله مبررا طرد آدم « والآن لعله يمد يده ويأخذ شجـرة الحياة أيضا ويأكل ويحيا إلى الأبد » تك ٢ : ٩ .

(٢) طرده لئلا يأكل من شجرة الحياة . لو بقى آدم فى الجنة وأكل من شجرة الحياة لعاش إلى الأبد . ولكن فى أى حال ؟ فى حال الفساد والتعاسة . ولو كان أكل من شجرة الحياة قبل سقوطه لعاش إلى الأبد فى حال القداسة ، ولكن رحمة الله منعته من أن يأكل من شجرة الحياة بعد سقوطه لكى لا يحيا دائما فى فساده . فإذا ما رأينا الله يطرد آدم من الجنة فلا ننسب ذلك إلى قساوة منه تعالى عليه بل إلى رحمته الغزيرة لأنه منعه من أن يحيا ابداً فى سقوطه بل أخرجه من الجنة ليتم عليه حكم الموت الزمنى ويفتح أمامه باب الفداء والخلاص .

٢٢ – سقوط نسل آدم

قد يقول قائل « أخطأ آدم فسقط فما ذنب نسله حتى يسقط بسقوطه ؟ » وعليه نجيب بأن ذلك ليس مخالفاً للعقل لا سيما إذا علمنا أن الخطية الأصلية ليست إثما نرتكبه بإرداتنا ولا يحكم الله عليه بالعذاب حاسباً إياها على إرادتنا . بل الخطية الأصلية هو موت النفس . قال أحد الأفاضل « الموت هو الخلو من الحياة وحياة النفس الروحية هى النعمة المبررة ، فالخطيئة الأصلية هو الخلو من البر الأصلى ، أى الخلو من النعمة المبررة واضاع له ولذريته تلك الحال المجانية التى كان عليها وصار أولاده يولدون دون هذه النعمة المبررة التى هى حياة النفس دون أن يفقدوا شيئاً مما يحق لطبعهم لأن تلك النعمة مجانية كما مر وبدون أن يمكنهم أن يشتكوا من أن الله سلب منهم شيئاً كان واجباً لهم أو عاقبهم على إثم لم يفعلوه فذلك أشبه بصنع مولى وهب رجلا داراً على أن يحسن خدمته ، ولما لم يحسن استرد المولى داره وصار لا يحق لذرية ذلك الرجل أن تملك الدار » .

وإذا قال أحد « أنا لا أرضى بالشرط الذى رضى به آدم فلا يحكم علىّ بما حكم عليه به » قلنا لا نسلم بذلك لأنه لو قال أحد الملوك لواحد منا « وليتك كل أملاكى بشرط أن تترك لى شجرة واحدة وإن لم تتركها قتلتك » فإننا لا نتوقف عن قبول الشرط طـرفة عين . فلو كان هذا المعترض مكـان آدم لما قلّ رضاه بهـذا الشرط .

٢٣ – الوعد بالفادى والمخلص

عند الوثنيين القدماء حكاية عن دخول الخطية إلى العالم وأظن أنهم جمعوها وركبوها على نسق قصة عدن . قالوا إن الآلهة أعطت المرأة الأولى علبة جميلة وثمينة وأوصوها أن لا تفتحها فحفظتها وقتاً طويلا وهى لا تعلم ما فيها . وإذ طال الزمان فرغ صبرها فقصدت أن تفتحها قليلا وتنظر فيها لحظة . ولما فعلت ذلك خرج من العلبة عدد لا يحصى من الأرواح السود ملأت الهواء وانتشرت فى الأرض ، ومن ثم لم يزل الكذب والغضب والكبرياء والحسد والبغضة والوف غيرها من الأرواح الشريرة طائر فى العالم بأجنحتها السوداء لغاية شقاء الناس . أما المرأة فاذ رأت ذلك حزنت حزناً لا مزيد عليه وارتعدت جداً وطبقت الغطاء وكان فى العلبة روح صالحة بهية – ليست سوداء كالأرواح التى خرجت – وهى الرجاء . ومن ثم بقيت المرأة حزينة خجولة ، والأرواح حولها والرجاء بجانبها محافظة عليه أشد المحافظة .

فهذه الأسطورة تمثل سقوط آدم ، ولم يكن الرجاء الذى هو الروح الصالحة إلا الوعد بمجيء الفادى المسيح الذى ظل العالم ينتظره جيـــلاً بعد جيـــل حتى ولد فى بيت لحم ، فصـــرخ الملائكة قائلين « المجـد لله فى الاعالى وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة » .

وهنا يسألنا سائل لماذا لم يخلص الله آدم ونسله إذا كان يرغب فى خلاصهم بدونّ إرسال ابنه ؟ فنجيب أن طبيعة الله السامية لا يمكن أن تخرج على النظام المرتبطة به . فالله يستطيع أن يُظلم ولكنه لا يِظلم لأن الظلم لا يوافق طبيعته الإلهية فالله وإن كان حراً فى تصرفاته إلا أنه مرتبط بشروط صفاته الطبيعية التى لا يمكن مطلقا أن ينقص منها شرطاً واحداً .

فمن ضمن صفاته العدل ، ولا يمكن إلا أن يكون عادلا . وهو رحيم ولا يمكن إلا أن يكون رحيما . إلا أنه لا يرحم حتى ينقض عدله ، ولا يعدل حتى ينقض رحمته . بل لابد أن يكون عادلا ورحيما فى آن واحد . قال الكتاب الإلهى « الرب طويل الروح كثير الإحسان يغفر الذنب والسيئة لكنه لا يبرىء بل يجعل ذنب الآباء على الأبناء إلى الجيل الثالث والرابع » (عدد ١٤ : ١٨) قال

المرتل « الرب مجرى العدل والقضاء لجميع المظلومين .. الرب رحيم ورؤوف طويل الروح وكثير الرحمة » (مز ١٠٣ : ٦ - ٨) .

فلو خلص الله آدم من غير أن يموت لما كان عادلا لأن العدل يقضى تنفيذ أحكام الله الذى قال لآدم « يوم تأكل منها موتا تموت » ولو أهلك آدم لما كان رحيما ومن صفاته الرحمة . فاذاً يجب أن يدبر الله أمرا يكون فيه عادلا ورحيما فى آن واحد وذلك بأن يموت المسيح عن آدم فمات ، وفى موته تم القول : الرحمة والحق التقيا . البر والسلام تلاثما (مز ٨٥ : ١٠) .

الفهـــرس

رقم الأيداع ٤٠٤٣/ ٨٣

القاهرة الحديثة للطباعة
احمد بهى الدين الخربوطلى
٣ ش الجد بالفجالة
تليفون : ٩٣٤٣١٠